نناشد صلاح الدين. . . أم نحاسب أنفسنا؟

إستجواب قائد بعد ثمانمائة سنة

دار ئاراس للطباعة والنشر

السلسلة الثقافية

*

صاحب الإمتياز: شوكت شيخ يزدين

رئيس التحرير: بدران أحمد حبيب

***

العنوان: دار ئاراس للطباعة والنشر - حي خانزاد - اربيل- كُردستان العراق
ص.ب رقم: ١
www.araspublisher.com

نناشد صلاح الدين... أم نحاسب أنفسنا؟

إستجواب قائد بعد ثمانمائة سنة

حوار مع الأستاذ

الدكتور مُحسِن محمَّد حُسَين

قسم التاريخ - كلية الآداب - جامعة صلاح الدين (أربيل)

كردستان العراق

أجراه: بدران أحمد حبيب

اسم الكتاب: نناشد صلاح الدين... أم نحاسب أنفسنا؟ «إستجواب قائد بعد ثمانمائة سنة»

حوار مع: الأستاذ الدكتور مُحسِن محمَّد حُسَين

أجرى الحوار: بدران أحمد حبيب

من منشورات ئاراس رقم: ١٣٣

التصميم والإخراج الفني: شاخوان كركوكي

الغلاف: شكار عفان النقشبندي

خطوط الغلاف: الخطاط محمد زاده

صورة الغلاف: للفنانة آريان عبدالخالق سرسام

تنضيد: نادية عزيز و كفي محفوظ

تصحيح: شاخوان كركوكي

الإشراف على الطبع: عبدالرحمن محمود

الطبعة الأولى: مطبعة وزارة التربية - اربيل ٢٠٠٢

رقم الإيداع في مكتبة المديرية العامة للثقافة والفنون في اربيل: ٢٠٠٢/١٨٢

تمهيد

قبل أن أخوض في لب موضوعنا الذي يمس العلاقة بين سلطة الإسلام والفكر القومي الكردي، أود أن اوضح أن الدين الإسلامي كأيّ دين آخر له جانبان: جانب العبادة ، وهو كديانة سماوية تنظم العلاقة بين الله والإنسان، فالله سبحانه يدعو الإنسان من خلال القرآن الكريم الى عمل الخير وإتباع الطريق السوي الذي رسمه له ربّه ويبشره لقاء ذلك بثواب الآخرة، ويتوعد المخالفين بعذاب أليم.

أما الجانب الثاني كفلسفة إجتماعية تنظم العلاقة بين الناس بعضهم مع البعض الآخر. وهو ما يتمثل في نظام الحكم والصالح العام سواء كان ذلك بين أبناء أمة واحدة أو بين أبناء أمم مختلفة. وفي هذا الجانب تكون مسؤولية الناس تجاه بعضهم البعض، والخير والشر في هذا النظام يكون في مدى إلتزامهم بتشريعات النظام الذي يدير شؤونهم. لكن رغم تمسّك الحكام المسلمين الشديد بالإدعاء بأنهم لايفعلون إلاّ ما تمليه عليهم قواعد الشريعة الإسلامية وتعاليم القرآن المجيد فإنّ الكثير من تصرفاتهم يتعارض وشرع الله ووصايا رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم.

إنّ الكرد إعتنقوا الإسلام طوعاً وتمسكوا به وضحّوا في سبيل إعلاء راية الإسلام الى جانب بقية الأمم المسلمة وكانوا في أحيان كثيرة في الطليعة منها، لكنهم تعرضوا على يد الحكام المسلمين أو السلطة التي تحكم بإسم الإسلام الى الإضطهاد والحرمان من حقوقهم التي لايعترض عليها الاسلام نصاً ولا روحاً. فكثيراً ما تعرض الكرد تحت غطاء الخلافات المذهبية الى الدمار والتقتيل.

ولو تصفحنا تاريخ الدول الاسلامية من أموية وعباسية وقاجارية

وصفوية وعثمانية نجدها جميعاً متفقة على قمع كل صحوة كردية على أرض الكرد بيد من حديد، فمنذ وصول الحكم الإسلامي الى كردستان حتى سقوط الدولة العثمانية، المركز الأخير لحكم الخلافة الاسلامية، نرى تلك الأنظمة التي حكمت بإسم الاسلام بقيادة (أمير المؤمنين) و(خليفة رسول الله) مسؤولة عن عدم نشوء كيان كردي في كردستان.

الإسلام كدين سماوي لايرسم أية حدود بين أبناء القوميات المختلفة، فالناس بحسب تعاليم الإسلام سواسية في الحقوق والواجبات وينال الجميع جزاءهم يوم القيامة. على كلٍّ، هذا ليس موضوع بحثنا ولايمكن لأحد أن يعترض على هذا الجانب بل أن موضوعنا ينصب على تاريخ صنعه الإنسان. لذا أرجو أن لايُفسَّر نقدنا تفسيراً خاطئاً. إن موضوعنا هو تاريخ حافل بمئات الدلائل التي تؤكد أن الحكم الإسلامي حال دون تحقيق تطلعات الكرد في إقامة كيان كردي. بل أنه حال دون يقظة للشعور القومي الكردي مهما كانت ضعيفة. في حين أن التراث العربي إزدهر في ظل حكم الإسلام وفُرِض على الشعوب غير العربية فرضاً. والسلطة الإسلامية خلال حوالي ١٣٠٠ عام من حكم الإسلام، منذ إعتناق الكرد للإسلام الى نهايات القرن التاسع عشر، كانت سبباً في إستنزاف القدرات العقلية والعسكرية والإجتماعية والإقتصادية للكرد وكردستان.

فاللغة العربية عزلت علماء الكرد ومفكريهم عن مجتمعهم وبَنَتْ جداراً من الغربة بينهم وبين أبناء أمتهم. وهذا ما أضطرّ العديد من النوابغ الكرد الى هجر مجتمعاتهم بعدما وجدوا لبضاعتهم الفكرية سوقاً رائجة في عواصم الحكم الإسلامي فعاشوا وماتوا فيها وبات تراثهم الفكري ملكاً للآخرين إذ لم يكن بمقدور الكرد إعتباره جزءً من التراث القومي الكردي، فصار تراثاً اسلامياً ليس للكرد منه سوى القول أن صاحبه كردي، ولطالما جوبه هذا القول بإعتراضات الكثير من الشوفينيين من أبناء القوميات التي ينتمي اليها الحاكم المسلم مما حرم الكرد حتى من مجرد الإعتزاز بخدمة رجالهم للإسلام.

وهكذا لانجد للكرد منذ دخولهم الإسلام وحتى ظهور الحركة الثقافية الحديثة في نهايات القرن التاسع عشر إلا القليل النادر من الكتابات باللغة الكردية يتمثل في بضع دواوين شعرية، ومن المعلوم أن الشعر الكردي التقليدي نشأ تحت تأثير الأدبيات الفارسية وهي التي بعثته، فالفرس سبقوا بقية الشعوب المسلمة الى التخلص من سيطرة العربية والعودة الى لغتهم القومية والتعامل بها ومعها. وإن نظرة سريعة على دواوين الشيخ أحمد الجزيري وفقي تَيْران وأحمدي خاني ونالي وخاناي قوبادي... الخ تبين لنا مدى تأثير اللغة والثقافة الفارسيّتيْن في أشعارهم.

إن ما دُوّن من تراث فكري كردي باللغة الكردية، خلال ثلاثة عشر قرناً من حكم دولة الإسلام ليس إلا قطرة في بحر لو قورن بنتاج المفكرين الكرد خلال تلك الفترة المدوَّن بلغات الأقوام الحاكمة، هذا الذي لايمكن إعتباره من التراث الفكري الكردي في شيء إنما هو مجرد خدمة مجانية قدمها المثقفون والعلماء الكرد للمكتبات العربية والفارسية بل والتركية ايضاً.

يصف الشاعر الكردي حاجي قادري كويي الذي عاش الى أواخر القرن التاسع عشر حالة العلماء والمثقفين الكرد هذه بضعة أبيات فيقول:

ئاخر ئەم عەقڵەیان هەبوو بۆیێ
گەر سولەیمانییە وەیا كۆیێ
بوونە ئوستادی فارسی و تازی
تا گەیشتن بە فەخرەكەی رازی
چونكە سەرمایە مالّی خەڵقی بوو
وەقتێ مردن هەموو بەهیچ دەرچوو
ئەمە مەعلوومی عاقڵە و مندالّ
نییە عەیبی موناقەشەی ئەمثال

وەک مریشکێ کە عەقڵی نەیهێنێ
بێت و هێلکەی مراوی هەڵبێنێ
وەک بگاتە کەناری جۆگەلەیەک
نایەتە شوێنی، بمرێ، جووجەڵەیەک
جێی ئەمە وشکە و جێی ئەوی ئاوە
تێ دەگا قینگ درانی پێ ماوە

هكذا كان منطقهم لذا فأنهم
سواء في السليمانيه أو في كويه (كويسنجق)
صاروا أساتذة في الفارسية والعربية
حتى باتوا يضاهون الفخر الرازي
ولمّا لم يكن رأس المال ملكهم
لم يرث منهم أبناؤهم شيئاً
إنه لأمر واضح للعاقل والجاهل
فلا ضير في إيراد مثال لهم
لقد فعلوا كدجاجة غبية
حين إحتضنت بيض بط سرعان ما فقس
فكلما بلغت الدجاجة جدول ماء
لم تتبعها أفراخ البط مهما حاولت
فبقيت هي على اليابسة والفراخ في الماء
عندها أدركت أنها لم تجن غير الشقاء

لقد عمل الكرد طوال حكم الدول الاسلامية بجد وصفاء نية، وكرس المثقفون الكرد وزعماؤهم السياسيون والعسكريون كل ما أوتوا من قوة وضحّوا في سبيل إعلاء كلمة الإسلام ورفع رايته لايريدون من وراء ذلك إلا الثواب الأخروي. في حين إستغلت الاقوام الأخرى كالعرب والفرس والترك الإسلام لبناء إمبراطورياتها وترسيخ دعائم دولٍ إسلامية آل بها

الأمر لتصبح دولاً قومية. وبكلام آخر يمكن القول أن الكرد صاروا جسراً مرّ من فوقه الاسلام ليبلغ هذا الدين غايته، بينما جعلت الأقوام الاخرى من الاسلام جسراً الى تحقيق غاياتها. وصلاح الدين الأيوبي هو أوضح مثال يؤكد ما ذهبنا اليه. وقد يعترض البعض فيقول: كيف يمكن أن نطالب صلاح الدين وأقاربه بأن يكونوا قوميين في ذلك العصر الذي لم يكن للقومية فيه ذكر، ولم تكن ثَمّ دعوة قومية بالمفهوم المعاصر، والإسلام كان أسمى شيء وكان أمة واحدة حلّ فيها رباط الدين محلّ الروابط القومية؟

إنّ هذا الكلام صحيح، فالوعي القومي كنظرية يبدأ مع الثورة الفرنسية في ١٧٨٠م. لكن هناك حقيقة لايمكن حجبها وهي أن الوعي القومي ظهر عملياً قبل هذا التاريخ بكثير فها هو الملك الأثيني (پريكليس) مثلاً قد ترك للتاريخ خطاباً يمجّد شهداء دولته (المدينة) وإن دلَّ هذا الخطاب على شيء فلن يكون سوى الدلالة على وعي قومي ناضج، كما أن الدول الإسلامية: الاموية والعباسية، لم تكن إلاّ دولاً قائمة على أساس قومي عربي، والإمبراطوريتَيْن الفارسية والعثمانية كانتا قائمتين على اساس قومي فارسي وتركي على التوالي، والإسلام بحد ذاته كان منذ البداية يميل الى إيقاظ وعي قومي عربي شامل يتجاوز حدود القبائل فوحّد قبائل جزيرة العرب في ظل رايته.

وفي صفوف الكرد كتب الشاعر أحمدي خاني في القرن السابع عشر قبل الثورة الفرنسية بحوالي قرن، ملحمة (مم وزين) وفيها عبّر عن وعي قومي ناضج عندما إنتقد الزعماء الكرد لعدم إقامتهم دولة كردية فقال:

گەر دێ هەبووا مە ئیتیفاقەک
ڤێکرا بکرا مە ئینقیادەک
رۆم و عەجەم و عەرەب تەمامی
هەمیان ژمەرا دکر غولامی

لو أننا إتحدنا فيما بيننا
وكان لنا قائد موحد
لبات الترك والفرس والعرب جميعاً
خدماً لنا وعبيداً

وفي الحقيقة فإن افتقارنا الى الوحدة، والى زعيم قومي، والى دولة ذات سيادة، جعل من الكرد خدماً وعبيداً للآخرين. إننا نرى نفس ما يراه أحمدي خاني وحاجي قادري كويي عندما نوجه النقد الى صلاح الدين الأيوبي لعدم إقامته دولة كردية وقيامه بدلاً من ذلك بسحب ما أمكنه من قوى وطاقات كردية الى خارج كردستان وكذلك عندما نقول أن علماء الكرد ومثقفيهم خدموا الغير.

إن صلاح الدين الذي ذاد عن حمى الإسلام وحرّر القدس من الصليبيين وأعاد الحياة الى التراث واللغة العربية – بل أن بعض كبار المثقفين العرب يقولون أن الفضل في إحياء اللغة العربية وازدهارها يعود الى الأيوبيين والى صلاح الدين بالذات – كان بإمكانه أن يُظلّ بني قومه في ظلّه بل كان الأجدر أن يفعل ذلك أولاً. وأعتقد أنه توانى عن ذلك بسبب طيبة الكرد وصفاء نواياهم ولشعور منه بالنقص، هذه العقدة التي لازال الإسلاميون الكرد يعانون منها فها نحن نجد البعض في كردستان المحررة اليوم يعتبرون تسمية أبنائهم بأسماء كردية نوعاً من الكفر وإبتعاداً عن الإسلام الحنيف.

هذا الكتاب هو مجموعة أسئلة حاورت بها تحريرياً الأستاذ الدكتور محسن حسين، وهو من الكتاب الأكاديميين المعروفين في كردستان وله مؤلفات عدة في موضوع هذا الحوار. والمحور الرئيسي لحوارنا يدور حول عزوف صلاح الدين عن إقامة دولة كردية وعدم خدمته الأمة التي ينتمي اليها.

حيث يدافع الاستاذ الدكتور دفاعاً قل نظيره عن صلاح الدين ويبرر

كل مواقفه ويرد على آرائنا جميعاً. وهذا من حقه. كما أننا نتباهى بصلاح الدين ونحترمه، لكننا نرى أن كل حدث تاريخي يستحق المراجعة والتقويم، وأنه يولد مع كل جيل جديد رؤية جديدة للأحداث لكن هذا لايعني تقويم صلاح الدين ودوره بمعايير اليوم بل يجب تقويم كل ذلك بمعايير عصره اذ ليس من العدل تجاوز ظروف وملابسات تلك الحقبة وهذا لاينفي وجود نقاط يُنتقد عليها كما لايعني التسليم بأن ما حدث كان صحيحاً.

ربما لايتوصل بعض من القراء بعد اتمام قراءة هذا الحوار الى حكم قاطع يقضي بأن هذا الطرف على صواب والآخر على خطأ، وهل أن التهم التي توجه اليوم الى صلاح الدين هي في محلها أم أن هناك حاجة الى الدفاع عنه. وهذه النتيجة طبيعية.

وهنا أود إدراج ردي على رأي طرحه الدكتور محسن محمد حسين في معرض إجابته على تساؤلاتي إذ قال: (نناشد صلاح الدين أم نحاسب أنفسنا؟) وكذلك عندما ذكر أنه لمّا لم يُقِمْ صلاح الدين دولة كردية فلماذا لم يفعل ذلك الآخرون، دون أن يوضح مَنْ هم هؤلاء الآخرون ومَنْ هم الذين يمكن أن نحاسبهم على عدم قيام دولة كردية لحد الآن غير صلاح الدين. هل كان يقصد الامارات الكردية التي ظهرت في القرنين ١٨ و١٩ في حين أنّ من المعروف للجميع أن تلك الإمارات قد عانت أشد المعاناة من الصراع القائم آنذاك بين إمبراطوريتين إسلاميتين جعلتا من كردستان مسرحاً لصراع مذهبي دموي: صفوي شيعيّ وعثماني سنيّ، بينما كانت الإمبراطوريتان على وئام تام في التصدي لأي يقظة كردية. أما في الربع الأخير من القرن التاسع عشر وفي القرن العشرين كلّه فقد بذل القادة الكرد من أمثال الشيخ عبيدالله النهري والشيخ عبدالسلام البارزاني والشيخ محمود الحفيد والقاضي محمد وملا مصطفى البارزاني وآخرين كل ما أوتوا لبناء كيان كردي، لكن مما يؤسف له أنّ الجغرافيا والتاريخ خاناهم وتكالبا عليهم وحالا

دون أن تكتحل أعينهم برؤية هدفهم يتحقق، لقد ضحى الشعب الكردي بكل شيء دون أن يحقق تطلعاته لا لأنه لم يكن جاداً في كفاحه بل لأن الظروف التي ظهر فيها هؤلاء القادة العظام حقاً لم تكن مواتية إذ كانت كردستان قد قُسّمت وتعقدت الظروف الدولية وظهرت قوى عظمى لاتقيم للكرد وتطلعاتهم وزناً.

وقد كان قصدنا من هذا الحوار أن نقول: لقد اضاع صلاح الدين فرصة ثمينة مواتية لم تعنّ للكرد بعدها، وقد ظلم التاريخ الكرد اذ أنه لن يمنحنا هذه الفرصة إلا بعد زمن طويل.

أخيراً فإن الأنظمة الإسلامية مسؤولة بشكلٍ أو بآخر عن مأساة الكرد. ومع ذلك لازالت تتهرب من تحمل مسؤوليتها تجاه هذا الشعب المظلوم، حتى عندما إقتبست الحكومة العراقية في أواخر القرن العشرين إسم سورة (الأنفال) من القرآن الكريم كشعار لتقضي في ظله على الشعب الكردي بأسلحة الدمار والإبادة الشاملة من كيمياوية وإختفاء قسري لأكثر من مائتي ألف إنسان برئ لا ذنب له سوى أنه كونه كردياً، ولم يكن من بين مئات الملايين من مسلمي العالم وعشرات الحكومات الاسلامية من ينبس ببنت شفة أو يهمس بكلمة إعتراض ليقول لماذا يصب هذا البلاء صبّاً على رأس قوم صلاح الدين الايوبي. وهنا يكمن التناقض الحقيقي.

بدران أحمد حبيب

٢٦ أيار ٢٠٠٢

قصتي مع صلاح الدين!

لكثرة إهتماماتي بمعالجة موضوع (صلاح الدين الأيوبي) ضمن أبحاثي، سواء ما يتعلق بمرحلة الدكتوراه حيث كان موضوع اطروحتي في جيش صلاح الدين، تكوينه وتنظيمه وأسلحته وبحريته ومعاركه... الخ، أو قبل هذه المرحلة حين نشرت بعد نيلي درجة الماجستير في موضوع (أربيل في العهد الأتابكي) بحثاً عن صلاح الدين ضمن كراس نشر عام ١٩٧٥ تحت عنوان «موضوعان في التاريخ الكردي». أو في المواسم الثقافية التي ساهمتُ فيها في بغداد ومدن كردستان، أو في خارج الوطن، وكذلك بحوثي المنشورة في مجلات كليات الآداب في جامعة بغداد والكويت والرياض، ومجلات المجمع العلمي العراقي/ الهيئة الكردية ومجلة (رۆشنبیری نوێ) و(كاروان) الكرديتيْن... الخ. أقول لكثرة هذا الاهتمام حصل معي بعض مايستحق الكتابة عنه هنا. فذات يوم وانا أسير في طريقي الى الكلية في بغداد- حيث عملت في جامعتها عشرين عاماً- تناهى الى سمعي من ينادي بإسم (صلاح الدين)، وحين تكرّر النداء التفتّ الى مصدره، فأذا باستاذي الذي أشرف على اطروحتي في مرحلة الدكتواره (محمد توفيق حسين) رحمه الله يناديني بإسم هذا القائد، فعدت خطوات الى الخلف، وألقيت عليه تحية الاحترام والود، وبعد أن (دردشنا) حول بعض المسائل، سألته إن كان قد نسي إسمي، رغم اني عملت معه قرابة ثلاث سنوات. أجاب: كلا، ولكن طغى اسم هذا القائد على إسمك، أجبته: هذا شرف كبير أن ينالني شئ من هذا القائد المبجل. ثم افترقنا عند بوابتى كليتينا المتقابلتين.

القصة الثانية حصلت معي حين وصلت الى كلية الآداب في مدينة مصراته بليبيا، وقدمت أوراقي الى الاخ الاستاذ الدكتور محمد الهادي بوعجيلة، رئيس قسم التاريخ، فتمعن في أوراقي وفي (السيرة العلمية)

ثم سألنى: هل تكتبون- أنتم العراقيون- أبحاثكم بإيعاز أو أوامر. قلت: ماذا تعني؟ أجاب: اكثر كتاباتك عن صلاح الدين، فهل كان ذلك بطلب من جهات معنية معيّنة، أو- كما يبدو من اوراقك- لكونك كردياً من مدينة أربيل؟ أجبت: لا انكر وجود أوامر أو إيعازات، سواء في كتابة البحوث أو عقد المؤتمرات، ولكن مصدر الايعاز لي في الكتابة عن هذا القائد ليس جهة رسمية، بل مصدره شعبي الذي مازال يبحث عن تاريخ هذا القائد، وشبان شعبي الذين يواصلون تساؤلاتهم حول مافعله، أو ما كان ينبغي ان يفعله. وحين ذكرت له أن في (السيرة العلمية) التي أمامه بقية اهتماماتي العلمية، ارتأى أن تكون اول محاضرة لي في الموسم الثقافي للعام ١٩٩٧ التي ألقيتها في قاعة (الوثيقة الخضراء) في إحدى نظريات فلسفة التاريخ، على ان تكون محاضرتي التالية عن جانب من جوانب صلاح الدين.

ومادمت أتحدث عن «الايعاز» فسأتحدث عن «اللاّ إيعاز». كنت التدريسي الوحيد في جامعة بغداد من تخصص عن صلاح الدين (ولحد الآن/ حسب علمي) وذات مرة أبلغت بأني مكلف بإلقاء بحث في مؤتمر عن هذا القائد سيعقد في جامعة تكريت لمناسبة مرور (٨٠٠) سنة على إنتصاره المدوي في موقعة حطين. وبعد أسابيع أو شهور قليلة وقبيل إنعقاد المؤتمر بأيام، أخبرني أحد المساهمين بأن إسمي قد حذف من قائمة المشاركين في المؤتمر. وبذلك لم تتم مشاركتي فيه.

والشئ بالشئ يذكر: كنت تدريسياً خارج قسم التاريخ[1] حين عقد مؤتمر «تاريخ العرب العسكري» في بابل وبغداد في الذكرى السنوية الأولى لاندلاع الحرب بين العراق وإيران، وساهمت في المؤتمر في حين لم يساهم فيه من قسم التاريخ إلا تدريسي لم يكن التاريخ العسكري ضمن إهتماماته.

وهكذا كانت مساهمتي كممثل وحيد عن جامعات كردستان والعراق

١- كنت رئيس قسم اللغة الكردية في جامعة بغداد.

في مؤتمر صلاح الدين الذي نظمته مؤسسة إستانبول للدراسات التاريخية بالتعاون مع جامعة دجلة في دياربكر لمناسبة مرور (٩٠٠) تسعمائة سنة على الحروب الصليبية والذي عقد في ٢٣-٢٤/ ١١/ ١٩٩٦، والقيت محاضرتين، كانت الاولى بإسم جامعة صلاح الدين والثانية باسم جامعة بغداد، وكان بعنوان (دور الكرد القيادي في جيش صلاح الدين) الذي سبق لي أن ساهمت به قبل شهور من ذلك التاريخ في الموسم الثقافي لجامعة دهوك. وكان للموضوع صداه الواسع لدى الحضور من سكان دهوك وديار بكر العزيزتين. ولن أنسى ماحييت لحظات الحفاوة البالغة التي قوبلت بها في دياربكر، رغم ما حصل من ملابسات بيني وبين بعض المؤتمرين- ولا أقول الحضور- على منصة المحاضرات، ثم على متن الطائرة من دياربكر الى انقرة.

لقد اطلت في الكلام عن الايعاز لكنه كان ضرورياً لأمهد (للايعاز) الذي جاءني هذه المرة فعلاً، ولكن ليس على صورة أمر، بل على شكل مجموعة تساؤلات اختمرت في الاذهان، مطلوب مني ان اكشف لهم حقيقة ما حصل بلغة سلسة، لأنها ليست لغتهم، ومن يدري فقد يترجم الكتاب الى لغته الكردية ذات يوم، لكي يشبع نهمه بصورة أفضل.

اني لاأريد ان اصوّر الوضع، وكأن تاريخ الكرد لايضم شخصاً سوى صلاح الدين، فقد يكون أمير ما في إمارة كردية مغمورة، خدم بني قومه اكثر من صلاح الدين، لكن لم يبلغ احد في سطوع اسمه مابلغه هذا الرجل، حتى عرف الكرد في اوساط ثقافية عالمية بإسم (شعب صلاح الدين) الذي قهر الغرب الصليبي، حين انتصر في حطين، وفتح بيت المقدس، وحرر الساحل الشامي، وصار رمزاً للبسالة والفروسية ونبل الاخلاق، ويضرب به المثل في هذه الشمائل، ليس في الشرق الاسلامي فحسب، بل في الغرب الذي ناصبه العداء كذلك، حتى فرض ملوك الغرب على المقتدرين من الناس ضريبة يدفعها من اجل استعادة الارض التي حرّرها هذا القائد، وسمّوها «ضريبة صلاح الدين – Saladin Tax»

* ان هذا النوع من التأليف أسلوب جديد، لكنه أسلوب يليق بزخم الاسئلة التي تراود اذهان الناس. ولكن اي ناس؟ هل صحيح ان صلاح الدين، وهو الشخصية الجذابة، وأحد أبطال الحروب، ويمتلك مؤهلات (القائد الكاريزما) اي القائد الذي التفت حوله الناس، لأنه رجل الملّمات، رجل يلهم ويستلهم، بشكل إنسيابي مقتدر فريد، أقول: هل صحيح ان صلاح الدين هذا مازال يثير ذلك الاهتمام الواسع؟ اجيب: نعم، عند من يعنيه شأن التاريخ، تاريخ الأمجاد والتمسك بقيم حب الوطن والتخلي عن الاطماع الشخصية... ثم اقول نعم، عندما يتعلق الأمر بانتسابه القومي الى الكرد، كما تشير مصادر التاريخ المعاصرة له. هذا الانتساب الذي كان أمراً عادياً- حسب المنطق الجهادي الاسلامي- ولكن ليس عادياً حسب المنطق القومي، أو بكلمة ادق «حسب المنطق العنصري العرقي...» وسنتحدث عن هذا في متن الكتاب.

وهذه النظرة تقودنا الى القاء نظرة الى (توليفة/ تركيبة) اسم هذا القائد «صلاح الدين الايوبي». فقد طغت هذه التركيبة على إسمه الحقيقي «يوسف بن أيوب». وتحول اسم والده الى لقب... ولم يستعمل لقبه الحقيقي (الروادي، الهذباني) لأن فيه إشارة صريحة الى انتسابه الى بني قومه الكرد، ولم يكن متبعاً في اتخاذ الالقاب ان يتحول إسم الأب الى لقب، في حين يتم حذف إسم القبيلة، كما لم ينسبوه الى مدينة أجداده، وبذلك طغت الكنية «صلاح الدين» على إسمه «يوسف» كما طغى إسم والده (على صيغة لقب) على إنتسابه الى قبيلة، وهو من المفارقات. وكان المألوف لدى ذكر اسماء الأعلام (المشاهير ذكر إسم الشخص بالكامل) ونسبه الى القبيلة أو المدينة- وأحياناً الى مذهب . ومن مزايا الاسلام -كما هو معروف- انه لايميّز بين مسلم ومسلم إلا بالتقوى «إن اكرمكم عند الله اتقاكم»، والمقصود من الآية الكريمة «كنتم خير أمة أخرجت للناس» المسلمين مهما كان عنصرهم أو لون بشرتهم، ولا يعقل أن تعطى صفة «خير أمة» لعرق دون آخر.

وبعد فان هذا الكتاب ليس كتاب تاريخ بالمعنى الدقيق في بعض جوانبه، بل انه كتاب فيه (محاكمة) أو (مساءلة) رجل وفق منظور عصرنا الراهن، وفيه (إستجواب) رجل قضى نحبه قبل اكثر من ثمانية قرون لكن- بالطبع- دون ان نستحضره، بل باستنطاق المصادر، وتحليلها والخروج منها بنتيجة، وليس (بجواب) فالذي سيجيب هو مؤلف هذا الكتاب اعتماداً على ماورد في مضان «اصل» كتب التاريخ، وليس استناداً على جواب صلاح الدين الذي بات شعبه يحمّله مالم تتحمّل اكتافه من أعباء، ويوجه اليه اسئلة لم تكن من واجبه، وواجب عصره، الاجابة عليها.

لايعقل الاّ بتعرّض الكتاب الى نقد بسبب اسلوب تأليفه، وأنا جاهز للاستفادة من نقادي. وعذري ان (دار آراس) حولتني الى ناطق باسم ميت – حي، وهو مهمة عسيرة، ورجائي الا أسيء الى قائد عظيم، والا فلن اغفر لنفسي، ولن يغفر لي التاريخ، وانا على يقين الى – حد كبير – ان تأليف كتاب كهذا لن يزيد الرجل الا تقديراً جديداً، والكرد لم يستجوب أو يحاكم أو يحاسب قائداً غيره، فكفاه بذلك شرفاً على شرفه الذي لا يبارى.

ونذكر ان صلاح الدين كان له أخطاؤه، وانكساراته، كأي إنسان يعمل ويثابر، ولا نقصد هنا خطأه في عدم تشكيل دولة كردستانية «فلنا على هذه المساءلة جوابنا» ضمن مادة الكتاب، بل نقصد أخطاءه في ميادين القتال، فلم تكن كل حياته إنتصاراً، وإلا لكان أسطورة، كان خيالاً محضاً، وهل ثم قائد لم ينكسر ذات مرة؟» ففي مسرح العمليات العسكرية سجل خسارة في بداية تسنمه مسؤولية الحكم في مصر والشام، كما كان إخفاقه عند بوابة مدينة صور (جنوبي لبنان) البالغة المتانة بسبب أسوارها العجيبة، ثم كان فشله في إبعاد الصليبيين من حصارهم البحري والبري الطويل لعكا، وذلك قبل التصالح التاريخ مع القائد الصليبي ريتشارد قلب الاسد ملك إنكلترا.

وهذه الانكسارات في خط تاريخ هذا الرجل يكمل صورة اي قائد حقيقي، وصلاح الدين كان قائداً حقيقياً، ولكن العبرة بالنتائج، وليست بتضخيم الانكسارات، ونحن لم ننف وجودها، ولم نكن مأخوذين، مبهورين، بهذا القائد، وإن بدونا يوماً بصورة المبهور به، فلنا بعض الحق في ذلك، لأن له حق علينا، لأنه أكثر قادة التاريخ من جعل هامة الكرد ترتفع اكثر، لكننا لم نكن مجافين في طروحاتنا، بل استندنا على وقائع مستقاة من مصادر موثوقة. ثم أننا نرجو الا نكون مقصرين، بحق صلاح الدين، وبحق الحقيقة، وبحق التاريخ...

***

اما المنهج الذي نتبعه فيتلخص بتقسيم الكتاب الى مواضيع، وليس فصول، يتضمن كل موضوع قضية يثيرها سؤال. ثم نحاول قدر المستطاع. الا نطيل في الكلام، بل نعبر عن المطلوب بإيجاز معقول، والا نكّرر المواضيع بل نحيل القارئ الى موضوع سبق الكلام عنه، أو نحيله الى موضوع لاحق، وهذا ليس بالأمر الجديد في التأليف، ولسنا معصومين من السهو والنسيان.

ولنبدأ اولاً بشرح الأرضية- اي القضية التي خلقت (القائد) أو الشخصية التي نتناولها. فالقضايا، أو سيرورة الأحداث، أو قانون حركة المجتمع، هي التي تصنع رجالها، وليس العكس، ولكن هؤلاء الرجال- بدورهم- يؤثرون في الحدث، وعلى عصرهم، حتى يبدو الأمر وكأنهم هم الذين يسيّرون أحداث التاريخ. والأرضية التي نعنيها هي التعريف بالحروب الصليبية.

د. محسن محمد حسين

أربيل – كردستان العراق ٢٠٠٢

الحروب الصليبية

حركة عسكرية هائلة إنبثقت من الغرب المسيحي الكاثوليكي في العصور الوسطى، قبل نهاية القرن الحادي عشر للميلاد بعد أن استغاث المسيحيون الشرقيون (الارثذوكس) بهم في الامبراطورية الرومانية في القسطنطينية (إستانبول الحالية) وذلك بعد هزيمتهم امام القوات السلجوقية في معركة مانزكرت في شرقي الاناضول عام ١٠٧١م وأسر امبراطورهم.

فكان ان دعى البابا اوربان الثاني اتباعه الى إعلان التعبئة والتوجه الى المشرق، وإنجاد إخوتهم مسيحيي الشرق في بلاد الروم، ثم إنقاذ الأراضي المقدسة المسيحية من أيدي أعدائهم المسلمين (الكفار في نظرهم). وكان البابا المذكور فرنسياً، ودعى الى حربه (المقدسة) في بلدة كليرمونت الفرنسية، كما كان اكثر الأمراء والمحاربين فرنسيين، لذا سميت جحافلهم بالفرنجة، وحروبهم بحروب الفرنجة[١] في المصادر الاسلامية (وغير الاسلامية)، وقد دامت نحو مائتي سنة (١٠٩٥-١٢٩١م)، ثم اطلق عليها الاوربيون إسم (الحروب الصليبية) بعد إنتهائها بنحو أربعمائة سنة، على إعتبار أنها حروب مقدسة، كما رسموا شارة الصليب باللون الاحمر على ظهورهم، إثر هتاف البابا (هكذا أراده الله!)

ورغم إضفاء الصفة الدينية عليها، أو محاولة جعل الدين الوازع الوحيد الذي تذرع به قادة الحركة، في تنظيم تلك الحملات الضخمة، التي بلغ عددها ثمان حملات، إلا أن مرامي أخرى دفعتهم الى القدوم الى بلاد المشرق «بلاد اللبن والعسل» المعروفة بثرواتها وتجارتها النشطة. وحاول الغرب- ولاسيما فرنسا- حل أزماته الاقتصادية، ليس

١- تيسير بن موسى، غزوات الافرنج، الدار العربية للكتاب، طرابلس، ليبيا.

في بلادهم، بل في بلاد الآخرين، ولاسيّما أزمة ندرة القوت، وكيفية توزيع الأراضي الاقطاعية. اضافة الى الدور البارز الذي اضطلعت به المدن التجارية الايطالية الكبرى «بيزا والبندقية - ڤينيسيا- وجنوا» تلك المدن التي كانت تهرول دائما وراء مصالحها[١].

وهذه الحملات نجحت في احتلال أجزاء واسعة من بلاد الشام الكبرى، أي سورية ولبنان وفلسطين، وكذلك أجزاء من ارض الاردن الحالية، أنشأ خلالها الصليبيون ثلاث إمارات، اولاها كانت في ارض كردستان في منطقة الجزيرة العليا، وهي امارة الرها[٢]، والثانية في انطاكية في شمالي سورية[٣]، والثالثة في شمالي لبنان «امارة طرابلس»، إضافة الى مملكة بيت المقدس في فلسطين.

وقد فتح هذا الاحتلال الكاسح في الجانب الاسلامي مجالات للتصدي له، فبدأ عصر الرجال المجاهدين، كان أوّلهم عمادالدين زنكي بن آق سنقر الذي استعاد الرها، ثم حلّ إبنه نورالدين محمود في حلب، ونجح في استعادة أجزاء من بلاد الشام الداخلية، ولكن أعظم انجاز قام به هو توجيهه حملات ثلاث الى مصر بقيادة شيركو قائد جيشه وساعده الايمن، لمعونة الخلافة الفاطمية في الوقوف بوجه الصليبيين الذين ظلوا يرنون بأبصارهم نحو هذه البلاد سابقاً وحتى المراحل الأخيرة من الحملات، لكنهم فشلوا فيها جميعاً.

اذن في دولة الاتابكة، وفي عهد نورالدين محمود برزت أسرة الاخوين

١- لاداعي هنا لشرح دوافع الحملة الأخرى، سواء إجتماعية او سياسية... الخ. وقد شرحنا ذلك في كتابنا (مع د. فاروق عمر فوزي) «تاريخ فلسطين» ط٢ / دار الشروق- عمان ١٩٩٩ . وللمزيد ينظر الى كتاب د. محمد صالح منصور. أثر العامل الديني في توجيه الحركة الصليبية. منشورات جامعة قاريونس- بنغازي. ليبيا ١٩٩٦ .

٢- وكانت تعرف في الغرب باسم «Edessa» وهي (اورفة) الحالية التي تقع جنوب شرقي بلاد الاناضول (في تركيا).

٣- تقع ضمن الأراضي التركية الآن.

شيركو وأيوب اكثر من ذي قبل، حيث إشترك يوسف «صلاح الدين» مع عمه في الحملات الشامية الثلاث الى مصر، وكان شاباً لم يتجاوز عمره السادسة والعشرين ربيعاً في الحملة الاولى، واستقرت الحملة الثالثة بطلب من الخليفة الفاطمي العاضد بالله، وبعد أيام قام صلاح الدين باغتيال وزير مصر الخائن (شاور) الذي ساوم الصليبيين اكثر من مرة. عندها عين الخليفة قائد الجيش شيركو وزيراً لمصر. ومالبث ان مات شيركو بعد شهور ثلاث، فما كان من الخليفة الا وعين صلاح الدين وزيراً خلفاً لعمه. ومنحه لقب «الملك الناصر صلاحُ الدين والدنيا»، فطغت شهرة اللقب على إسمه الحقيقي.

*** أين عاش أجداد صلاح الدين؟ وكيف كانت حالهم ومكانتهم قبل مغادرتهم موطنهم؟ وما سبب نزوحهم الى تكريت. ومن ثم خروجهم منها؟**

لاجدال ان صلاح الدين ينتمي الى القبيلة الروادية الهذبانية الكردية، وان أجداده ولدوا في بلدة (دوين) باجماع المصادر، وهي بلدة أو قرية مغمورة «غير معروفة» عند الجغرافيين المسلمين، لكن شهرة صلاح الدين جعلتها معروفة لدى المعنيين بالتاريخ، على الرغم من أن التعرف بها بقى أمراً غير هيّن، وهذا ماأدخل المؤرّخين والجغرافيين الى متاهات، وسبّب جدالاً وخلافاً بينهم إلى الوقت الراهن وحتى ابن خلكان الأربلي الذي خرج من أربيل في سنّ يافعة، قبل أن يكمّل العقد الثاني من عمره، لم يستطع أن يحسم الموقف. ويعتبر ياقوت الحموي أشهر جغرافيي العصر (توفي ٦٢٦هـ/١٢٢٩م) اكثر مَن أبعد مسقط رأس الايوبيين عن ارض كُردستان حين قال: دوين من نواحي أران في آخر حدود اذربيجان بالقرب من تفليس[١]. دون ان يكون قد زار المنطقة. فالمعلومات الجغرافية كانت تطلق دون أي حرج. فها هو الجغرافي الشهير ابن

١- معجم البلدان. ط. دار صادر بيروت. ١٩٥٥-٤٩١/٢.

حوقل عاش في ذروة نضج الحضارة الاسلامية (ت٣٦٧هـ/٩٧٧م) يصف منبع نهري الزابين «الكبير والصغير» فيقول: مخرجهما من الجبال التي بين نواحي اذربيجان متسربة من أقتار ارمينيا «كذا» ونواحي اذربيجان[١] ويبدو ان اذربيجان كانت تشمل في وقت ما مناطق واسعة تمتد الى الأجزاء الشمالية الشرقية من العراق الحالي ولن نتحدث عن المخاريق والخرافات التي ذكرها الجغرافيون في كتبهم، اَوَ لم ينسب المسعودي أصل الكرد الى الجن... أو العرب (؟).[٢]

لكن وجود بقايا قرية على مسافة قصيرة من مصيف پيرمام «صلاح الدين» تعرف باسم دوين، وتأكيد كبار المعنيين بالآثار بينهم الاستاذ المرحوم طه باقر وفؤاد سفر، والرحالة الأجانب الذين تجوّلوا في المنطقة واعلنوا ان هذه البقايا الموجودة في هذه القرية جعل مسألة مسقط رأس أجداد هذا القائد تُطرح على بساط البحث أكثر من مرة. ولاسيما وأنّ الإقليم المحيط بالقرية وبجبل پيرمام يضم رفاة أشخاص يحملون أسماء شبيهة بأسماء أبناء أسرة شادي بن مروان الهذباني الروادي. واذا كانت الصورة بهذه الشاكلة فمن المحتمل أن تكون (دوين) هذه مسقط رأس الأسرة وستبقى المسألة بحاجة الى مناقشات بهدوء ورويّة للوصول الى الحقيقة. ومن الضروري أن نبيّن الخلافات التي تظهر بين أصحاب المصادر، والجغرافيين القدامى، دون أن نلوي عنق الحقيقة، ولكن لنستفيد منها.

والواقع أن الاختلاف الذي يظهر في تحديد موقع هذه البلدة سببه ان من تحدث عن (دوين) من معاصري صلاح الدين، سواء من المؤرخين أو البلدانيين لم يزر المنطقة. ومن ثم فان أكثر مَن كتب تاريخ بلاد الكرد لم يكونوا من أبنائها، ومَن كان من أبنائها وجّه إهتمامه نحو موضوع عام،

١- صورة الارض. منشورات مكتبة الحياة - بيروت ١٩٧٩. ص٢٠٥.
٢- انظر الرد الذي نشرناه في جريدة العراق في ١٩٨٤/٤/٣٠ تحت عنوان «المسعودي وحديثه عن أصل الكرد».

وهذا ماينطبق، بالدرجة الاولى- على ابن الأثير الجزري وعلى ابن خلكان الاربلي، الى حد كبير، في حين خصّ إبن المستوفي الأربلي أحد مصنفاته الكثيرة لتاريخ رجالات مدينته ومن زارها من الرجال البارزين، وخَدَمَنا بذلك خدمة جليلة.

هذا ولعدم وجود كيان يضم كُردستان الكبرى، ولاسيما في التاريخ الاسلامي، بات أمر تعيين حدود الأقاليم المنضوية أو المنضمّة الى هذه الدولة أو تلك، قديماً وحديثاً، بات مسألة شاقة، وسبّبت في اوقات عديدة في تآكل حدود ارض كردستان من الجهات كافة، بل وجعل بعض أبنائه من المشاهير يُنسبون الى خارج أوطانهم، أو إلى قوم غير قومهم.

ويجب ألا يغيب عن بالنا أن للكرد وجود في أماكن خارج وطنهم الحالي كما تخبرنا بذلك مصادر التاريخ، وهذا يعني ان مساحة وطنهم قد تقلّصت بمرور الزمن، بقدرة قادر(!).

*** أمّا سبب نزوح أسرة شادي "جد صلاح الدين" عن موطنهم**

فنجيب: ان المصادر تسكت عن ذلك، ولكن من المحتم ان طموحهم السياسي ماكان يتحقق لو مكثوا في ديارهم، واكثر من حققوا أمجاداً، وأسّسوا دولاً وحضارات وخلّدتهم صفحات التاريخ كانوا ممن غيّروا واقعهم، ونزحوا من أوطانهم. ولنذكر الامويين والعباسيين والسلاجقة والفاطميين والمماليك والعثمانيين، على سبيل المثال، لا الحصر، وهل نذكر المغول والنورمانديين والفايكنگ والامريكان؟ والواقع أن أبناء أسرة شادي كانوا في الأساس أناساً غير عاديين، والا لما وصفهم ابن الأثير، المعروف عنه نزعاته الانتقادية، والجارحة أحياناً، تجاه صلاح الدين، بأنهم من أشراف الاكراد، ويصفهم ابن خلكان بأنهم كانوا من أعيان دوين. وتركوا في مسقط رأسهم أوقافاً وذكراً في بوابة قرية «أجدانقان»، ولكونهم من الأعيان أو من الوجهاء تم تعيينهم، في وقت مبكر، في مناصب رفيعة سواء في تكريت أو دمشق أو بعلبك أو الموصل

وحلب فمصر. وينبغي الاّ ننسى أن الهذبانيين – وأسرة صلاح الدين منهم – كانوا حكام المنطقة وقادتها، وحكموا أربيل – على سبيل المثال – وأقليمها الواسع، قبيل العهد الأتابكي[١].

ومعروف أن أبناء أسرة شادي، لم يكونوا لوحدهم حين غادروا دوين، بل رافقهم أقاربهم. فنجد ان خال صلاح الدين «شهاب الدين محمود» سيغدو أحد أبرز رجالات حملة شيركو التي إستقرت في مصر، وقد كان له موقفه المساند لإختيار إبن أخته وزيراً لمصر الفاطمية، كما سنرى. وكذلك سيغدو ابن خاله الآخر «موسك بن جكو» أحد القائدين – مع أبي بكر بن أيوب – اللذين قضيا على تمرد السودان في مصر في بداية وزارة صلاح الدين.

غادر شادي الهذباني – ومعه الركب- بلاده وتوجّه نحو بغداد، واتصل هناك بمجاهدالدين بهروز – وكان مسؤولاً عن شحنة بغداد[٢]– ومن المقرّبين من السلطان السلجوقي، ولإخلاصه في عمله جعله حاكم مدينة تكريت. وطلب بهروز من شادي وأسرته أن يرافقه، وعيّن أيوباً دزداراً[٣] لقلعة تكريت. وبعد وصولهم الى هذه المدينة توفي شادي، ودفن فيها، وكان على قبره المعروف عند الناس قبّة. وتكريت لم تكن بلدة غريبة عن الكرد، فحين يصفها الجغرافي ابن حوقل يقول: «الغالب عليها الاكراد والأعراب».[٤]

حل ايوب الابن الاكبر لشادي محل والده مسؤولاً عن قلعة تكريت، وأخلص في عمله وشكره بهروز على حسن أدائه لمهّمته. ولكن شاء القدر ألا تسير الأمور وفق هذا الترتيب، فحصل ما غيّر مصير الأسرة

١- وكان للهذبانيين (وكذلك للاكراد الحميدية واللارية) حي خاص بهم في الموصل. انظر: ابن حوقل. صورة الارض. ص١٩٥.
٢- الشحنة: بمثابة المسؤول عن أمن الدولة او المدينة.
٣- دزدار: محتفظ القلعة.
٤- المصدر المذكور. ص: ٢٢٠.

الطموحة، ومجرى حياتها. فماذا حصل؟

تعرّض أحدهم «إعتدى» على إحدى نساء تكريت، فراحت تولول، وتشكو محتفظ القلعة. إلا أن شيركو لم ينتظر ما سيفعله أخوه، فما كان منه إلاّ وتناول حربته وقتل الرجل. أنزعج أيوب من تهورّ أخيه، وبسبب من موقفه كمسؤول عن المدينة، إعتقله، وهيّأ محضراً لما حصل، وأرسله الى بهروز «وعرّفه صورة الحال ليفعل مايراه». قرأ بهروز المحضر فوجّه كتاباً الى ولدي شادي معاً، وخاطبهما فيه: «لأبيكما عليّ حق، وبيني وبينكما مودّة متأكدة» ولا أستطيع أن أتصرف معكما بسوء في مثل هذه الحالة، لكني أطلب منكما أن تغادرا المدينة «وتطلبا الرزق حيث شئتما».

حين وصلهما الجواب لم يستطيعا التريث والمكوث في تكريت، فغادراها وتوجّها الى الموصل، واستقبلهما صاحبها عمادالدين زنكي بحرارة، نظراً لعلاقة طيبة سابقة بينهما، وأكرم وفادتهما، وأقطعهما إقطاعاً حسناً، وحين إستولت قوات زنكي على جبال لبنان وأرض البقاع، عينّ أيوبّاً نائباً عنه على قلعة بعلبك.

وقبيل إخراجهما من تكريت سنة إثنتين وثلاثين بمدة يسيرة ولد صلاح الدين فيها. وقد بقى ابن خلكان يتابع تاريخ الاسرة، ويجمع أخبارها، فكتب تراجم حياة رجالات الاسرة المعروفين، كما كتب لصلاح الدين أطول سيرة على الاطلاق ضمن كتابه المعروف الذي ضمّن أكثر من ثمانمائة سيرة لعظماء الاسلام الذين توفوا قبل سنة ٦٥٠هـ/١٢٤٢م. ومما ذكره انه سأل بعض أقارب صلاح الدين الذين عاصرهم ابن خلكان المولود في أربيل بعد وفاة صلاح الدين بنحو تسع عشرة سنة، سألهم: متى خرجوا من تكريت؟ أجابوه «سمعت جماعة أهلنا يقولون: أنهم أُخرجوا منها في الليلة التي ولد فيها صلاح الدين، حتى أنّ أهله تشاءموا به، وتطيروا منه «من المولود».

فقال بعضهم: لعل فيه الخيرة وما تعلمون، فكان ماقال، والله أعلم[1]

١- وفيات الأعيان: ١٣٩/٧.

اننا لانريد تعقيب تحركات الأسرة، وكيف حققوا طموحاً في قيادة الدولة الزنكية ثم النورية، حتى صار لهم القدح المعلّى في الدولة النورية، ولاسيما شيركو، حين صار قائداً للجيش فيها، ثم وزيراً في مصر الفاطمية، حتى توفي، وحل محله صلاح الدين، ثم توفي الخليفة الفاطمي، وبعده بسنتين توفي نورالدين، فصار صلاح الدين يتبوأ مكانة الشخصية الاولى في مصر، ثم في الشام، ثم في دولة مترامية الأطراف تمتّد من برقة «ليبيا» الى السودان فاليمن، فالحرمين، وكذلك الجزيرة الفراتية «كردستان الغربية والشمالية».

وبهذه الصورة نجيب على سؤال حول: كيف تسنى لصلاح الدين التقدم والبروز، ونضيف: ان هذا حصل حين كان شاباً يتمتع برياض لبنان وغوطة دمشق، تحت كنف أسرته، ويمارس أنواعاً من رياضة عصره مع أقرانه، قبل أن يدفعه عمه الى مشاركته في الحملات العسكرية المتتالية التي بعثها صاحب الشام نورالدين، وقادها جميعاً شيركو، في محاولة لحماية مصر من الصليبيين، ومن ثم طردهم بعد جهود دبلوماسية وعسكرية، وانتهى به المطاف الى أن يحكم مصر بمساعدة أخوته ووالده الشيخ الذي طلب صلاح الدين منه أن يتوجه الى مصر ويستقر فيها، وليقدم مشورته له في تلك التجربة في حكم بلاد بعيدة أحدث فيه انقلاباً بالمفهوم الايديولوجي والقومي، حين أحلَّ المذهب السُنّي محل المذهب الاسماعيلي، وحكم الكرد (ومعهم الترك) محل حكم عربي ينتسب الى فاطمة الزهراء «ع».

*** الا تحدثتَ لنا عن دور الكرد في جيشه؟**

الجواب على هذا السؤال كان محور كلامنا في اكثر من مناسبة، كما كتبنا بحثاً نشر باللغة الكردية في مجلة المجمع العلمي/ الهيئة الكردية عام ١٩٨٥، ثم نشر نصّه بالعربية في مجلة (مەتين) عام ١٩٩٦.

لاشك أن الكرد شكّلوا إمارات على مرّ التاريخ، معتمدين على قواهم الذاتية، وما إمتازوا من صفات المحاربين البواسل. وكان لهم دور في

جيوش دول إسلامية كانت كردستان جزءً من تلك الدول، بينها الدولة السلجوقية والأتابكية، وقد أشار – على سبيل المثال – الكاتب المعاصر لتلك الفترة – اسامة بن منقذ في كتابه (الاعتبار) الذي يعدّ اول من كتب في ادب (الذكريات) عن تجاربه الغزيرة في الحياة، وهو سليل أسرة عربية حاكمة في امارة «شيزر» قرب حماه، أشار الى دور رجال ونساء الكرد في الدفاع عن حياض وطنهم ودينهم، ولاسيما وأن الصليبيين لم يميزّوا بين الكرد والترك والعرب. ولاعجب أن إجتمع في سنة ٤٦٣هـ/ ١٠٧١م مع السلطان السلجوقي ألب أرسلان عشرة آلاف من الكرد المقاتلين[١]، والسبب الأساس في هذا هو أن السلطان قرّر مواجهة جيش دولة الروم البيزنطيين، وكان يقوده (رومانوس ديوجين)، وجرت معركة في بلدة (ملازكرد) على أرض كردستان الشمالية، وإنتهت بانتصار المسلمين بفضل بسالة أبناء المنطقة الكرد، وتم فيه أسر القائد البيزنطي.[٢]

كانت هذه المعركة بمثابة الفتيلة التي أشعلت نار الحروب الصليبية، فأثر الهزيمة رأى امبراطور الروم ميخائيل السابع ضرورة المصالحة مع الپاپوية (الكنيسة الكاثوليكية في الغرب) والتفاهم معها لمنع تقدم الجيوش الاسلامية التي إمتدت حتى بلغت بحر مرمرة، اي قرب عاصمتهم القسطنطينية.[٣]

وبذلك كانت هزيمة الدولة البيزنطية في أرض كردستان، السبب المباشر لاندلاع الحرب بين العالمين الاسلامي والمسيحي بكنيستيه الشرقية (الارثذوكسية) والغربية (الكاثوليكية).

ونضيف الى هذا السبب سبباً آخر، هو أن أول إمارة من الامارات الثلاث التي أقامها المنتصرون الصليبيون، على أرض إسلامية كانت

١- الدواداري: الدرة المضية. ص: ٣٩٣.
٢- ابن النظام الحسيني: العراضة في الحكاية السلجوقية. ص:٤٨.
٣- ارنست باركر: الحروب الصليبية. ص:١٩.

على أرض كردستان، وهي إمارة الرها «في اورفة في كردستان الشمالية»، وقد أقاموها عام ١٠٩٨م، وهي – أيضاً – أول إمارة تم تحريرها من براثن المحتلين بقيادة المجاهد الاتابك عمادالدين زنگي عام ١١٤٤م بعد إحتلال دام ست وأربعين سنة، فانهارت بذلك دعامة من دعائم الوجود الصليبي، وإستولى زنگي بعد ذلك على المدن والقصبات التابعة للرها، فأصبح وادي الفرات الاعلى «كردستان العليا» خالصاً للمسلمين.[١]

فهل هناك داع لتساؤل البعض عن سبب إسهام الكرد في هذه الحروب منذ إندلاعها، فالدافع لم يكن الدفاع عن ارض المسلمين في الشام وفي فلسطين، ثم في مصر، فحسب، بل الدفاع عن وجودهم، وعن ارضهم هم، تلك الاراضي التي هي جزء من العالم الاسلامي، فالمقاتلون الكرد لم يكونوا مرتزقة في أية مرحلة من مراحل تلك الحروب، ولم يحاربوا من أجل الغير... نيابة عن الآخرين، بل حاربوا لتحرير أرضهم، وأملا في الحصول على الشهادة، وبموقع في الجنة، فالشهادة الحقيقية – في الاسلام – التي حرّكت عواطف المسلمين كافة، يومئذ، هي أن تقتل بأيدي أهل دين آخر.

ان هذا الدور الذي سما بهم نحو العُلا، جعل العالم يشهد ان الكرد حين يقرر تحرير أرضه، فسيقاتل باستماته، تجعل العدو قبل الصديق يقرّ ان ثمّ شعب مقاتل يتصف بمزايا البسالة لايضاهيه فيها أحد، رغم ان جهودهم كان يستفيد منها الآخرون(!) ومحاولة انكار أو نسيان دوره، وإقصائه عن التاريخ، ومن الجغرافية أحياناً(!).

ان طبيعة كردستان لهي مدرسة بذاتها لتعليم الشجاعة، فقد جُبِلَ الكردُ ليكونوا بواسل، بقامتهم النحيلة القوية، فوجد نفسه في حالة إحتراب أو شجار دائم مع طبيعة بلاده، تلك الطبيعة التي صانتهم من الزوال والذوبان، وجعلتهم يردّون الغزاة والطامعين على أعقابهم.

١- المرجع السابق. ص: ١٥٧.

هذه الصفات ذكرها مؤرخون وكتّاب عديدون، بعد مالمسوا ما أبداه الكرد في الحروب الصليبية، فكتبوا بانصاف عما يتصف به الكرد من مواصفات، والواقع أن اكثر من أشاد بهم كانوا مصريين. فقد ذكر الدواداري (توفي في ١٣٣٠م) ان الكرد رُماة جيّدون بالقوس والنشاب «السهام»[١].

وابن فضل الله العمري تناول الكرد في كلامه من زاوية اخرى بأعدادهم وصراعاتهم الداخلية، فيقول «الكرد خلائق لاتحصى(!) وجماعات لاتحصر، ولولا ان سيف الفتنة(!) بينهم يستحصد قائمهم... لفاضوا عن البلاد، لكنهم رموا «وصفوا» بشتات الرأي، وتفرّق الكلمة»[٢]. وهذا السبب لازال قائماً في أجزاء من كردستان، ويفسر عدم قيام دولة موحدة في التاريخ على أرضهم.

وكاتب ثالث هو الحسن بن عبدالله العباسي، من القرن الرابع عشر الميلادي، يرى ان الكرد فيهم الشجاعة والنجدة والحمية، فرسانهم ورجالتهم. فهو بهذا يتحدث عن المقاتل الكردي. ويضيف الى قوله رأياً يخالف به رأي ابن فضل الله العمري: «ان الكرد يتعصّبون لبعضهم في كل حال... وليس فيهم حيل ولا مكر، وهم ينقادون للدين الاسلامي وللأمانة.[٣]

هذه شهادات عن قدرات الكرد القتالية، ولاداعي لذكر المزيد من آراء الكتاب، وكلهم عاشوا في عهد المماليك في مصر (والشام)، أي أنهم كتبوا شهاداتهم بعد أفول الدولة الايوبية، وبعد أن إنحسر الوجود الكردي في تلك الديار بقرن أو اكثر.

ومايخصّ هذا الدور في جيش صلاح الدين، فقد بدا واضحاً منذ بروز أسرة أيوب وشيركو في مصر، حين وقفوا – حسب رواية إبن

١- الدواداري: مصدر سابق.
١- التعريف بالمصطلح الشريف. ص: ٤٠.
٣- كتابه «آثار الاول». ص. ١٤٧.

الأثير – صفاً واحداً خلف صلاح الدين إثر إختيار الخليفة العاضد بالله الفاطمي له وزيراً خلفاً لعمّه شيركو: ويتبدّى ذلك من الحوار الذي دار بين قادة الجيش النوري، والمفاوضات التي أدارها القاضي عيسى الهكاري مع كل قائد على حدة، وبدبلوماسية وذكاء، لاقناعهم قبول تولّي صلاح الدين الوزارة.

فالخليفة الفاطمي حين إستزار صلاح الدين اعترض عليه قادة الجيش (النوري) لصغر سنّه، إذ لم يكن قد تجاوز الثلاثين إلاّ قليلاً[١]، ولأنّهم ارادوا ان تكون الوزارة لأحدهم. رغم انه ابن أخي شيركو قائد الجيش ووزير مصر، ورغم انه هو قاتل الوزير السابق شاور، وكان ينبغي حسب العرف الفاطمي – يومئذ – أن يتولّي القاتل الوزارةَ بنفسه. لكن العاضد لم يجد معقولاً أن يتولّي الوزارة شخص في وقت كان شيركو هو قائد الجيش، ولأن شيركو هو عم القاتل.

شاعت الهمسات بين القادة حول أحقّية هذا الشاب. فأسرع عيسى الهكاري، وذهب الى سيف الدين علي (المشطوب الهكاري)[٢] كونه من عشيرته.

وقد صار المشطوب أشهر قائد في جيش صلاح الدين فيما بعد. استطاع الفقيه التأثير فيه واستمالته الى جانب تأييد إختيار صلاح الدين، قائلاً له: انك لن تحصل على وزارة مصر، نظراً لوجود منافس خطير لك هو الامير عين الدولة الياروقي التركماني، وخسرو بن تليل الهذباني، وشهاب الدين محمود خال صلاح الدين، وعليك ان توافق على إستيزاره، فوافق المشطوب على ذلك. ثم ذهب الفقيه عيسى الى شهاب

١- ذكرنا في مناسبة سابقة الى أنّ عمره كان في الثانية والثلاثين (وكان ذلك بالتقويم القمري-الهجري). وما نذكره الآن فبالتقويم الشمسي. فمولد صلاح الدين كان في ٥٣٢هـ/١١٣٨م او ١١٣٩م، وتم إختياره وزيراً عام ٥٦٤هـ/١١٦٨م.
٢- انظر بحثنا: المشطوب الهكاري، سيرة مجاهد. مجلة المجمع العلمي/ الهيئة الكردية. بغداد ١٩٨١. المجلد الثامن ص٣٠١-٣٢٤. وانظر د. نَبَز مجيد أمين: المشطوب الهكاري. رسالة ماجستير جامعة صلاح الدين – اربيل ١٩٩١.

الدين وأقنعه بقوله: انك خال صلاح الدين، وان عزّه ومُلكه لك، وقد إستقام له أمر الوزارة، فلا تكن من يسعى الى إخراجه عنه. وإستمر في مساعيه الحميدة لاقناع بقية القادة الكرد للتسليم بالأمر الواقع لمصلحتهم، فذهب الى خسرو الهذباني، وقال له: ان صلاح الدين قد أطاعه الناس، ولم يبق غيرك وغير الياروقي، وعلى اي حال فما يجمع بينك وبين صلاح الدين هو أنكما كرديّان، فلا تخرج الوزارة عنه الى الأتراك «يقصد الياروقي»[1].

فاقتنع خسرو بذلك، وهكذا كان اتفاق كلمة الكرد، وموقفهم الموحد سبباً في صعود نجم صلاح الدين، وبالتالي نجم الكرد، اكثر من أي وقت.

لم يبق بين قادة جيش نورالدين محمود في مصر إلا وساند صلاح الدين، سوى عين الدولة الياروقي، وكان أكبر الجميع سناً، فلم تنفع معه محاولات القاضي الهكاري السحرية. فما كان منه إلا وغادر مصر إحتجاجاً على ماحصل، وعاد الى الشام ومعه بقية القادة الترك ومقاتليهم[2].

وقد إمتعض نورالدين محمود من عودة الياروقي ومن معه، نظراً لحساسية الموقف بالنسبة للظروف التي تمر بها مصر، واعلن ان الحفاظ على هذه البلاد، وحمايتها أهم من أي شيء آخر.[3]

ومادمنا نتحدّث عن دور الكرد في جيش صلاح الدين، فيتعيّن أن نذكر أهم الجماعات الكردية فيه. فكان الهذبانيون – وهم من قبيلة

١- هذه النص يؤكد ان الجيش النوري، الجيش الاسلامي الوحيد الذي تصدّى للاحتلال، لم يكن يضم في صفوفه سوى الكرد والترك، «رغم ان الأرض التي يحاربون لتحريرها، لم تكن أرضهم بالمفهوم القومي الحديث».

٢- حسب هذه الرواية، كان ثم صراع خفي ذرّ قرنه بين عنصري جيش نورالدين محمود، وقد تنامى هذا الصراح في وقت لاحق، حين تشتد المواجهات مع المحتلين.

٣- ابن الأثير: الباهر في التاريخ الأتابكي. ص: ١٤٢.

صلاح الدين – قد حكموا مناطق كردية واسعة في فترات سابقة، وخاصة منطقة أربيل وما جاورها مثل آذربيجان وإقليم الجزيرة[1]، وكان لهم أحياؤهم الخاصة في مدينة الموصل. ومن قادة هذه الجماعة الامير موسك والأمير خسرو، والامير البارز أبو الهيجاء الذي حكم أربيل قبل العهد الاتابكي، وقام بدور جليّ في الصراع الذي دار بين الخليفة العباسي المسترشد بالله والسلطان السلجوقي محمود بن محمد بن ملكشاه، حين إنضم مع جنده الى صفوف السلطان سنة ٥٢٠-٥٢١هـ/١١٢٦م[2].

كما ضم هذا الجيش جماعة الهكاريين الذين إمتلكوا عدداً من المعاقل وكان بيدهم منطقة واسعة تمتد من شرقي الاناضول الى شرقي الموصل. وأبرز قادتهم كان سيف الدين علي الهكاري، الوارد ذكره. وقد عرف بلقب (المشطوب) لشرخ «أثر جرح عميق» في وجنته أصابه في إحدى المواجهات مع المحتلين، وصار هذا الشطب علماً «رمزاً» عليه، وعلى ولده الباسل (ابن المشطوب الهكاري). وقد وصف المؤرخ القاضي ابن شداد هذا القائد بـ«كبير ملوك الاكراد»[3].

وكذلك ساهمت في تنظيمات الجيش قبيلة (الحميدي)، و(الماراني) و(الحكمي) وكان زعيمها الامير «خوشترين». ومن الصعب العثور على بقايا بعض هذه الجماعات في الوقت الراهن، وعلى بقايا جماعات كردية اكثر يذكرها مؤرّخون عديدون، قد يكون المسعودي أوّلهم، ولايكون المقريزي – مؤرخ مصر الكبير – آخرهم، ومَن بين الاثنين من مّؤرخي

١- ابو شامة: كتاب الروضتين: ج١ ق١ ص ٤٠٧.
انظر دراسة د. أحمد عبدالعزيز: الهذبانيون في آذربيجان واربيل والجزيرة. رسالة ماجستير- جامعة صلاح الدين – اربيل ١٩٩٠.

٢- ابن الأثير: الكامل: ٦٣٨/١٠.
انظر دراستنا: اربيل في العهد الأتابكي. رسالة ماجستير- جامعة بغداد. مطبعة أسعد ١٩٧٦. ص: ٣٥.

٣- النوادر – سيرة صلاح الدين، ص: ١١٠.

وكتّاب الحروب الصليبيين.

ومما يؤكد بروز دور الكرد منذ عهد مبكر في دولة وجيش صلاح الدين هو أنهم كانوا سنده في الشدائد، وبمثابة ساعده الأيمن في الصراعات التي وجد نفسه مضطراً لخوضها ليثبّت أركان حكمه الفتي في ديار بعيدة، سواء ماخاضه ضد بقايا الحكم الفاطمي من الحرس القديم (السوداني، والارمني) الذين حاولوا باستماته إعادة الحكم الى سابق عهده، أو لدحر الغزو البيزنطي – الصقلي – الصليبي المشترك، الذي حاولوا إستغلال الوضع القلق الذي نجم عن قدوم قوات الشام، ومصرع الوزراء الواحد بعد الآخر «الوزير طلائع، ثم ابنه رزيك، ثم ضرغام، وبعده غريمه شاور، ثم موت شيركو» وإستيزار صلاح الدين، وإحتمال توحيد قوات مصر والشام، ووضع المرتكزات الصليبية في فلسطين والشام بين كمّاشتي النار.

وكان صلاح الدين على يقين بأن ليس من المعقول أن يسلّم السودانيون سلاحهم بسهولة، ويتخلوا عن الجيش دون مقاومة. وحين إستكمل صلاح الدين إعداد قوة جديدة مواليه له، بدأ باقصاء العناصر التي يشك في نواياها من الجيش. فبدأ بتطيهر المعسكرات منها وتصفيتها في عمليات مداهمة منظمة واسعة، عندها ثار السودان، ومن والاهم، في السنة نفسها التي تولى فيها صلاح الدين الوزارة، اي في سنة ٥٦٤هـ/١١٦٨م، في وقت كان الخليفة لايزال يحكم مصر، وبقي يحكمها الى مابعد هذا الحادث بثلاث سنين.

بلغ عدد السودان الذين جمعهم قائدهم جوهر نحو خمسين الف مقاتل[1]. إلاّ ان الوزير صلاح الدين استطاع أن يهييء قوةً لقمع الحركة، ووضع على رأسها الامير أبا الهيجاء السمين الهذباني، وتمكن هذا إلحاق الهزيمة بالسودانيين ومن والاهم في منطقة (بين القصرين) في القاهرة، ثم أضرموا النار في منازلهم في حي المنصورة. ثم طارد

١- عمادالدين الكاتب: البرق الشامي، تلخيص البنداري ٨٣/١.

توران شاه – أخو صلاح الدين – مَن بقى منهم الى منطقة الجيزة، جنوب القاهرة، ومنها الى صعيد مصر. وحين عاودوا تمردهم، وفتكوا ببعض أمراء صلاح الدين من الكرد، بينهم أحد إخوة الهذباني المذكور، وجد القائد نفسه أمام خيار إنهاء وجودهم دون رحمة. فارسل أخاه سيف الدين ابابكر في الحال، ومعه ابن خاله موسك بن جكو، واستطاعوا قتل زعيم التمرد، وإبادة الجند السودانيين عن بكرة أبيهم. ولهذا فان صلاح الدين لم يستسلم حكمه بهدوء، فلم يكن الطريق مفروشاً أمامه بالورود حين تسنّم مسؤولية قيادة مصر والمنطقة.

وقد لاقى من أجل ترسيخ الحكم الأمرّين، ولكن إرادته وحنكته في إدارة دفة الحكم إنتصرت. ولهذا نرى ان الأمر لم يكن بالسهولة التي تصورّها ابن الأثير حين ذكر ان القضاء على الحكم الفاطمي تم بيُسر ودون إراقة الدماء، وان «لم تنتطح فيه عنزتان»، فقد سالت الدماء الغزيرة، لأن ماقام به هذا الرجل كان إنقلاباً، كما أسلفنا. على الرغم من أن المصريين لايميلون الى إراقة الدماء، ولكن الحكم كان – دوماً – بأيدي غير المصريين – منذ قرون – وبعد قرون.

اما ماحصل فيما بعد، فان من يدقق في مجريات الأحداث اللاحقة سيجد أن قادة وأمراء التنظيمات في حطين – وبعدها – كانوا كرداً، ففي حطين فان من أسر ملك الصليبيين «گي لوزينيان» كان كردياً هو «درباز» كما قام المقاتل الماراني إبراهيم بأسر أشهر وأشرس قائد صليبي في تاريخ هذه الحروب وهو (رينو دي شاتيو)، أرناط في المصادر العربية.

وفي إحدى المعارك التي إحتدمت، وفي موقعة أطلق عليها (الوقعة العظمى) كان صلاح الدين يضع اولاده وأقاربه في أجنحة جيشه، فوضع في ميمنته ولديه الملك الافضل علي والملك الظافر خضر، وابن اخته (لاشين) ثم إبن أخيه الأمير الباسل تقي الدين عمر بن شاهنشاه. اما ميسرة الجيش فقد قادها سيف الدين علي المشطوب المذكور،

والأمير مجلي بن مروان، وجماعات كردية أخرى من المارانيين والهكاريين.

هذا وقد إنعكس هذا الثقل الكردي في جيشه على مجلس حربه، وكان يتكوّن من كبار قادته وأمرائه ممن لهم باع طويل في البسالة وادارة دفّة القتال، وكان المجلس يرأسه – عادة – صلاح الدين، ويشترك في عضويته كبار قادة الأسرة ورؤساء القبائل الكردية، كان أبرزهم سيف الدين ابوبكر بن ايوب وكان مستشاره في الأمور الخطيرة، ثم أخوته الآخرين توران شاه وشاهنشاه وطغتكين، كما كان يستشير والده في وقت سابق، وبعد وفاة هؤلاء حلّ محلّهم اولاده الكبار خاصة نورالدين علي وشهاب الدين غازي، ثم شهاب الدين محمود، ويضاف الى هؤلاء كبار القادة الكرد، نذكر منهم: المشطوب وعيسى الهكاريَّيْن، وابو الهيجاء الهذباني.

ولعل من المفيد ان نذكر ان التسمية بأسماء كردية كانت شائعة بين الكرد، ولاسيما في الجيل الأول من القادة أو أبنائهم الذين قدموا من كردستان مباشرة، ونلاحظ أن هذه الأسماء تختفي في الجيل التالي، بسبب إحتكاكهم بالوسط العربي، ربما باستثناء إسم شيركو الذي إستمر آل شيركو يسمّون اولادهم باسمه تيمّنا باسم هذا القائد الكبير، ومن هذه الأسماء: شادي، سالار، لاشين، خسرو، خوشترين، درباز، موسك، جكو، شاهنشاه، تورانشاه... الخ.

ولكي نوفي الجواب حقّه نقول: ان دور الكرد المتعاظم في جيش صلاح الدين هو الذي دفع بعض الباحثين الى إطلاق اسم «الدولة الكردية» عليها على الرغم من ان هذا الوصف تعوزه الدقّة. وقد إستندوا في تسميتهم الى كون صلاح الدين قد أسند المناصب الخطيرة في دولته الى الكرد. يقول الدكتور نظير حسان سعداوي: ان صلاح الدين قد أكثر من الاعتماد على أهله وأمرائه الكرد، دون غيرهم، ضماناً لولائهم له ولقيادته في وقت الشدة والحرب.

وبمعنى قريب أعلن الدكتور سعيد عبدالفتاح عاشور من جامعة القاهرة، في بحث أخير له: «هناك حقيقة كبرى ينبغي الا تغيب عن فكرنا، وألا نقلّل من شأنها، هي أن صلاح الدين وأهل بيته كانوا كرداً... وإذا إعتز أبناء هذا البيت بشيء فأنهم كانوا يعتزّون بأنهم مسلمون، وكثيراً ماكانوا في حياة صلاح الدين – وبعد وفاته – يتخاطبون مع بعضهم باللسان الكردي، ولهذا كان من الطبيعي أن يعتمد بنو أيوب (بل بنو شادي) في المقام الأول على بني جلدتهم، وخاصة أنهم كانوا اكثر صلابة وخشونة، وأقل إنغماساً في حياة الدعة والترف».

كما عبّر الدكتور السيد الباز العريني عن رأيه بطريقة اخرى، فقال: مع أن جيش صلاح الدين إلتزم، بما إنتهجه جيش نورالدين محمود من نظم حضارية، فانه اختلف عنه في ناحية هي أن العنصر الكردي غلب في جيش صلاح الدين، بينما تضاءلت أهمية العنصر التركي.

ولعل من المفيد أن ننقل رأي باحث اجنبي (فرنسي) يختصر أموراً كثيرة، لنكمل الجواب، إذ يقول گروسّيه في كتابه (تاريخ الحروب الصليبية) المطبوع عام ١٩٣٥:

> «ان ما إشتهرت به الأسرة الأيوبية من خصوبة الفكر ومتانة الخلق، جعل لها التفوق والسلطان في المحيط الذي عاشت فيه»[1].

فما كان للكرد من نشاط وفتوةّ، لم يلبث أن أدخل في الشرق الاوسط من القوة والبأس والشدة، ماكان له اكبر الأثر في تغيير الاحوال في مصر والشام»، وهذا يكفي.

1- Grousset: Histoire des Croesades, Paris, 1935.

تسألونني: لماذا لم تتولد أفكار قومية كردية لدى صلاح الدين، خصوصاً بعد وصوله الى السلطة؟ ولماذا لم يجعل مركز دولته أو عاصمتها في كردستان؟

سؤال مشروع. ونجيب- قدر مستطاعنا- ونقول: لو كان صلاح الدين يخطط منذ الاساس لتشكيل دولة كردستانية لاستطاع ذلك، من حيث الرغبة، ولاسيما وان المشاعر القومية لصيقة بالمرء منذ أن يعي ذاته وواقعه. وتقر بذلك الشرائع والقوانين الوضعية، وحاولت الأديان في أكثرها الحد من غلواء الافكار القومية التي تصل الى مستوى التعالي والاحساس بالتفوق على الآخرين، والى عرقية مقيتة، تحطّ من مكانة وحقوق الآخرين، وتنظر إليهم نظرة دونية.

نعم حاولت الأديان، وكذلك الدساتير، الا أنهما لم تستطيعا محو الاحساس بالتفوق العنصري، أو محو مشاعر الانحياز الى بني قومك، في أقل تقدير. ولكن دعني أسالك أنا، هذه المرة: هل يحاسَب صلاح الدين على عدم تشكيله دولة كردستانية، وهو لم تضعه أمه بعد، حين غادر جده ومعه أسرته كردستان، وتركوا دوين مسقط رأسهم خلف ظهورهم؟

لا أظن أننا ننصف هذا الرجل، أو ننصف التاريخ، إذا طالبناه بذلك، لسبب واضح هو انه ترعرع، منذ أن كان يرضع، وسط أجواء مشحونة بكراهية المحتلين الصليبيين، ترعرع في أحضان دولة ظهرت على المسرح وهدفها الأول مقاومة المحتل. أقصد دولة المجاهدين عمادالدين زنكي وولده نورالدين محمود. الدولة التي وضعت نصب أعينها هدف لمّ شمل المسلمين كافة، بعد أن فشلت كل من الخلافة العباسية في بغداد، والخلافة الفاطمية في مصر، والسلاجقة الموجودين في انحاء المنطقة التي إحتلها الصليبيون، ولاسيما في بلاد الشام وبلاد الروم «الاناضول» فشلت في تحقيق هدف لمِّ الشمل، والوقوف بوجه القادمين من أنحاء متفرقة من اوروبا.

واكثر من ذلك، فإنّ دولتي الخلافة المذكورتين- وبسبب صراعهما المذهبي، رغم صلة قرابتهما من آل بيت الرسول -ص- عجزتا عن التصدي للحملة الاولى، ووقفت كلتاهما تتفرج حين تخسر إحداهما اراضٍ لها، لأن الخسارة في عرفهما، خسارة لخلافة الند، للأخرى، وكأنها ليست أرضاً إسلامية وإذا كانت القوة الفاطمية الموجودة في فلسطين قد دافعت عن ممتلكاتها حينما وصلت إليها الحشود الصليبية، فإن هذه الدولة (الفاطمية) كانت قد أرسلت سفارة (وفداً) الى الامراء الصليبيين، حينما وصلوا الى انطاكية- وكانت تحت حكم السلاجقة الترك، تدعوهم للتفاوض من أجل إقتسام النفوذ والسيطرة، أي إقتسام أنطاكية بين الصليبيين والفاطميين. أما الخلافة العباسية فكانت تتفرج(!) وإستمرت تتفرج الى نهايتها بيد هولاكو، قبل أن تنتهي الحروب الصليبية بنحو خمسٍ وأربعين سنة. يقول باحث معاصرٌ مختصّ: لقد جاءت أحداث الحملة الصليبية الأولى -ومابعدها- لتؤكّد أنّ نموذج الدولة التي يحكمها خليفة، ليس له من الأمر شيء، قد دخل متحف التاريخ[1].

نعود لنقول: في مثل هذه الأجواء، نشأت دولة الأتابكة في الموصل وحلب، على الإرث السلجوقي، وقرر مؤسسها زنكي ان يقف بوجه المحتلين، وقد مضى على وجودهم على الأرض الاسلامية عقود، لم يفكر زنكي في تأسيس دولة قومية «تركية» بالمعنى الدقيق، فقد كانت وظلت دولة إسلامية، وبالاسلام- لوحده صار بوسع السلاجقة، وبعدهم الاتابكة الوقوف بوجه الغزاة، وليس بشيء آخر، والاسلام لايعني أداء الواجبات الدينية فحسب، بل يعني الجهاد والشهادة، وتطبيق الشرع على مناحي الحياة كافة. وهذا هو سبب شهرة، أو عظمة زنكي وإبنه البار اللذين ترعرعت آل شادي في كنفهما.

١- د. قاسم عبدة قاسم. ماهية الحروب الصليبية. الكويت. عالم المعرفة ١٩٩٠. ص ١٨٧.

لو كان شادي واولاده ومن معهم، يهدفون الى إنشاء دولة كردستانية، فلماذا غادروا أرضهم، في وقت كان الهذبانيون –وهم أشرف الكرد– حسب وصف المؤرخين– قوة متعاظمة قبلية، تمتد اراضيهم من حدود آذربيجان وبلاد أران مروراً بأربيل وانتهاء بالموصل، وربما أبعد من ذلك، وسبق أن أقام الهذبانيون دولة لهم، كما ذكرنا من قبل، في تلك المنطقة.

هذا يوضح ان طموح إنشاء دولة قومية لم يخطر في بال شادي أو في بال ولديه أيوب وشيركو، وكل ماحققوه هو تحملهم لمسؤولية ادارية وعسكرية في تكريت. تم غادر الأخوان هذه البلدة الى الموصل، ومن ثم الى حلب فصار أيوب بمثابة مستشار لنورالدين محمود وتسلم مسؤولية إدارية في أجزاء من الشام، بينها بعلبك ودمشق– حيث ترعرع فيها الولد اليافع والشاب صلاح الدين.

ولربما– على الرغم مما يحمله لفظ (ربما) من مدلولات، ولكننا تعلمناه خلال تدريسنا لفلسفة التاريخ مدة عشرين عاماً لحد الآن، نقول: ولربما كانا ينتهي بهما المطاف في تحقيق طموحهما عند هذا الحد. (لولا) و(لولا) قرينة «ربما» و«جوابه» هنا. نقول: لولا «اولاً» حاجة مصر الى منقذ من الصراع الداخلي القاتل بين الوزراء الطموحين «بل الطامعين»، فكان من يقتل وزيراً يغدو وزيراً. ولولا «ثانياً» ضعف كيان المؤسسة العسكرية في مصر، وعجز جيشها في الوقوف بوجه أطماع الصليبيين فيها. ولولا «ثالثاً» ضعف المؤسسة السياسية الحاكمة، والحاكم الأخير في الدولة– أية دولة كانت– وهنا نقصد الخليفة الفاطمي– مهما كانت نواياه طيبة، ولديه رغبة في الاصلاح، لايقدر الوقوف بوجه تيّار التداعي والانهيار الذي بدأ قبل حكمه ولولا «رابعاً واخيراً» ضعف إقتصاد مصر، بسبب الاوضاع العامة، وحالات الجفاف، في وقت كانت مصر سلة غلال، وخيراتها ومواردها لاتنضب –حسب تعبير ستيفن رنسيمان– وقد عادت إليها العافية بعد ذلك، ومراراً. أو لم يقل عنها ابن

حوقل قبل الف عام: مصر اقليم قديم، جليل عظيم، عائده جسيم... لو عمرت مصر كلها، لوفت بأعمال الدنيا «كلها»[1].

لقد أخذنا السياق ونحن نتحدث عن المحروسة، فـ«بلاوي» مصر دفعت شيركو وابن أخيه لكي يتبوّآ تلك المكانة المرموقة، فمصر عظيمة حينما تنهض... وعزيزة حينما تنكب. ففيها كانت بداية صلاح الدين في عهد الخليفة المذكور، كضابط في جيش نورالدين محمود، الذي يقوده شيركو، ثم حينما صار وزيراً بعد وفاة عمه، ثم أخذته روح الجهاد، وهاجس توحيد البلاد، توحيد مصر والشام خاصة، على غرار ما استهدف زنكي ومحمود من قبل.

صلاح الدين لم يتخل عن بني قومه قط، ولا عن لغته قط، لسبب بسيط هو أن بني قومه صاروا ذخيرته وسنده في الشدائد، كما أشرنا الى ذلك. وكان يخاطبهم بلغته حين ينفرد بهم.

*** ثم نكمل الجواب على الشطر الثاني من السؤال: لماذا لم... يجعل عاصمة دولته على أرض كردستان؟**

نقول: إنّ من بديهيات الأمور، من لايؤسس دولة على أرض قومه، لايجعل عاصمتها عليها، أو فيها. فهذا الرجل لم يستهدف –أساساً– تأسيس إمارة... أو إقطاعية كردستانية... امارة على مساحة صغيرة «إمارة ولو على حجارة». نقول هذا دون أن نستهين بمثل هذا العمل، ودون أن نطعن في تاريخ الامارات فربما كبرت هذه الامارة، وإمتدت لتشمل أراضي واسعة من ارض الوطن... إتسعت لتضم أجزاء من أرض كردستان... تجمع اوصال هذه البلاد وسمائها المقطعة. لكن إمارة كردية ما لم تمتد لتحقق هذه الآمال العراض المشروعة، رغم ان وجود إمارة أفضل من عدمها، أفضل من «اللاإمارة».

ولأن صلاح الدين بات شخصاً عظيماً، بكل ماتعنيه العظمة، فصار

١– كتابه «صورة الارض» ص: ١٢٨.

لومه خطيراً وعظيماً، مثله. نعم كان بوسعه... وبوسع والده... وعمه... وجده تأسيس امارة كردية، شأنهم شأن العديدين من بناة الامارات... مثل الامارات... أو الدويلات؟ «القزمية» التي ظهرت على أرض الشام قبيل الغزو (الفرنجي) الأول «الصليبي»... وقبيل الغزو الفرنجي «الفرنسي» الثاني «في أوائل القرن العشرين». ولكن اين هم بناة هذه الإمارات؟ اين ذكرهم في بطون كتب التاريخ؟ لقد طواهم النسيان بعد أن ماتوا... سواء في الشام أو في كردستان.

لكن بقيت أسماء عمادالدين زنكي... نورالدين محمود... صلاح الدين يوسف... سيف الدين قلاوون... ركن الدين بيبرس –على سبيل المثال لا الحصر– بقيت خالدة على مر العهود.

نعم كان بوسع صلاح الدين ان يجعل مركز الدولة التي كان سيقيمها– لو كان يقيمها– في كردستان... ولكن دولة كانت –على الاكثر– تتحول الى إمارة تنافس إمارة... أو إمارات اخرى... وتتآكل قواها –جميعاً– ويتنازعون... وتذهب ريحهم... وتضعف إقتصادياتها وبنيتها... وقواها البشرية، كما حصل لناس كردستان مراراً... والى الآن. فصلاح الدين إذن لم يقم الدولة التي اردناها... أو التي نريدها... ونطالبه بها... بل أقام الدولة التي أرادها هو، وأرادها عصره، وأرادتها الضرورة التاريخية.

وعلينا أن ننتبه الى مسألة مهمة هي أن دولة صلاح الدين نفسها لم تدم طويلاً، بل انتهى وجودها بعد أقل من ستين سنة من وفاته عام ٥٨٩هـ /١١٩٣م، حين قامت دولة المماليك عام ٦٤٨هـ/١٢٥٠م.

اني لا أدعو الى اليأس –بالطبع– بل أدعو الى الوحدة. فالوحدة بين الطاقات الكردية... القوى الكردية... في كل زمان، وحسب مفهوم كل عصر، هي الطريق لتحقيق الهدف... لتكوين هذا الكيان الذي يأتي إنعكاساً لواقع أية جماعة... أية أمة... لكن «أمة في شقاق»... أمة في تنافس تناحري... فيما بين أبنائها... لن يستفيد من وضعها غير

الأجنبي... غير العدو المشترك... المتربص لنا دوماً... الذي يحول وجوده دون قيام كيان كردي شامل... أو شبه شامل... وهنا أعيد الى الأذهان مقولة فلسفية من (كروچه Croce) فيلسوف التاريخ والاخلاق والحرية (توفي عام ١٩٥٢) صارت بمثابة اركيولوجيا المعرفة، يقول فيها «التاريخ كله تاريخ معاصر»، أعيدها الى الأذهان –هنا– بدل أن أعيد مقولة مؤرخ الاغريق العظيم توكيديديس «Thucydides ٤٦٠–٣٩٥ ق.م)، وبالمناسبة اذكر ان هذا المؤرخ الفطحل هو «ابو التاريخ» وليس هيرودوت (Herodot – ٤٨٤ق.م) قال توكيديديس «وكأن التاريخ يعيد نفسه». فمن يرنو الى واقعنا الراهن، يستطيع أن يتخيل –بشكل من الأشكال– كيف كان تاريخنا، ويتمنى لو كان أفضل من هذا... مما نحن فيه... ليس من قبيل الطموح فحسب، بل من قبيل الاحساس بالأسى كذلك.

يمكننا أن نقتدي بالقائد صلاح الدين... ان نتأسى به... فهو قد أثبت لنا بجدارة... بجهوده وجهاده... وبإلتفاف الشعب الكردي... بقبائله... حوله، أثبت أنّ أبناء هذا الشعب لاتنقصهم الارادة والحكمة، والرغبة في وحدة الصف... لتأسيس دولة. فمن يستطيع أن يؤسس –ولو نظرياً– دولة على ارض الآخرين بوسعه أن يبني دولة على أرضه الواسعة. أقول الواسعة لأن «الامارة على حجارة» ليست إلاّ دليلاً على فقرنا... أو إفتقارنا الى بعد قومي.

فهل نحاسب طوبوگرافية وطننا كونها لم تساعدنا على لمّ شملنا؟ نعم، فهذه مسألة محسوبة... ومحسومة، فكثيراً ما توجه الجغرافية التاريخ، ومن منا لايعرف تأثير العامل الجغرافي على قيام الدول، وصنع الحضارات. والجغرافية تعني: الأرض، وما فوقها، وماتحتها... والماء... والهواء... والموقع من البحر ومن خط الحرارة، وإنخفاضها «خط الاستواء والقطبين».

والحق أن وطننا لاتنقصه هذه العوامل... لاينقصه ما فوق وما تحت

الارض، والموقع والمياه «إن صارت لنا كلمتنا في التصرف بها» ويجب الا نتحجج بالبرد شتاءً، والحرّ صيفاً... فنحن لسنا أسوأ الناس(!) لسنا أسوأ من چاد... ومنغوليا... ونيپال(!) اذكر هذه الدول لأنها ليست دولاً بحرية(!).

هناك «سر» ينبغي البحث عنه... سرّ كامن فينا، يمنعنا من أن ننظر الى أبعد من أنفنا... من أنفسنا... الى أبعد من مدينتنا... حتى صار حب المدينة عند العديدين بديلاً عن حب كردستان... ناهيك عن كردستان الكبرى. لقد طغت الاقليمية «وعشق مدينة ما»، على الوطنية، وعلى القومية... وصارت كمسألة طبيعية. نعم، فانت إنْ لم تحب مدينتك، وأكاد أقول: إن لم تحب الحي الذي ولدت فيه، فلن تحب وطنك... لن تحب بني قومك. ولكن أن يطغى هذا الحب... ان يحل محل حب الوطن... ان يكون بديلاً عن كردستان، فهذه طامة كبرى، بذرة خبيثة خبيئة، يجب علينا – جميعاً– ان نجتثها من جذورها، ونبيدها، فهي نبات سام ينمو على حساب غذائنا، وعلى حساب الأزهار الجميلة الفواحة.

أقول: السر يكمن فينا، دون أن أنفي دور الدول الطامعة فينا، ولكن الدول لاتطمع في خيرات شعب واع موحد قويّ، فهذه الدول لم تصبح قوية إلا لأنك ضعيف... خائر القوى. فضعفك هو الذي منحهم القوة... قوتهم من ضعفك. فمن يرمي تبعة ما يحصل له، على عاتق الآخرين – فقط– كمن يتهرّب من المسؤولية. علينا أن نبحث عن ضعفنا في ذواتنا. أما أن نبحثه في «تقصير صلاح الدين» فهو كمن يناشد الموتى أن يحموه من الموت... وفي ذلك تهرب من مسؤليتنا.

وكأننا نقول: إنهض أيها القائد لنحاسبك على إرتكابك خطأ، عملاً غير مقبول، نستجوبك يا صلاح الدين بعد مماتك بأكثر من ثمانمائة سنة، ونسألك: لماذا لم تعمل من أجلنا نحن الكرد، من أجل وطنك كردستان؟

لكنه إستجواب بارد، فلا يليق بشعب واع أن يحاسب تاريخه، ولايحاسب نفسه... لايحاسب واقعه... بل يحاسب أجداده. وصلاح الدين

–بعد كل هذا– لم يكن يحمل معه عصاً سحرية لينفذ بها ما يريد. وهل أراد ذلك أصلاً؟ أن يقيم دولة كردية. إني أنفي وجود هذه الرغبة لديه. وأرجع الى جواب السؤال المطروح: أين كان سيقيم عاصمته؟ فكردستان الشرقية كانت خارجة عن سلطته ونفوذه، وبقية كردستان يحكمها أمراء (دون إمارات) صاروا من رجاله. فهل كان عليه أن يغادر أرض مصر والشام، ويعود الى أرض أجداده، ويقيم فيها دولة كردية؟ كان صلاح الدين عندئذ يتحول من سلطان عظيم يحكم أرجاء واسعة من العالم الاسلامي، وله نفوذ على الحرمين (مكة والمدينة) ويدعو له خطيباهما بالنصر والتوفيق، كان هذا القائد سيتحوّل الى أمير، يناهضه أمراء آخرون، أو الى ملك يحكم أرضاً واسعة، لكن ما أن يموت إلاّ وتتشتّت دولته الى أشلاء، كما حصل لدولته الواسعة فعلاً، بموته. لولا أن خليفته الملك العادل سيف الدين أبابكر حال دون ذلك الى حدّ ما، وأجّلَ هذا التشتُّت بعض الشيء، وما زال كلام كروچه يرنّ في أذني.

ولعل من نافلة القول أن نبيّن أن إقامة دولة ليس نتاج رغبةٍ شخصية، مهما عظمت مكانة الشخص، حتى لو كان هذا الشخص هو صلاح الدين، بل تتوقف على جملة عوامل، موضوعية وذاتية، كالتي ذكرناها.

ومن الأمور الملفتة للتأمل والدراسة، أن يقود الكرد حملة الى ديار بعيدة عن كردستان ويقيموا دولة فيها، لانقصد مصر التي عرفنا كيف تأسّست فيها الدولة الأيوبية، وظروف تأسيسها، بل بلاد اليمن في أقاصي الجزيرة العربية، حين أرسل صلاح الدين سنة ٥٦٩هـ/ ١١٧٣م حملة عسكرية يقودها أخوه تورانشاه، نجحت في الأستيلاء على بلاد اليمن، وأقامت دولة بكل ما تعنيه هذه الكلمة، هي الدولة الأيوبية في اليمن. وكان للكرد فيها دورهم الحضاري، شمل بناء المدن والقلاع والأسوار والقصور والبساتين، والاهتمام بمصانع «صهاريج» المياه، والزراعة وتأمين الطرق، بالإضافة الى إهتماماتهم العلمية والثقافية، فأسّسوا عدداً من المراكز التعليمية كالمدارس... الخ.

اني مسرور وفخور لما قام به بنو أيوب من إنجازات في بلاد نائية عن وطنهم، ولكن كان سروري وفخري يتضاعف لو كانت هذه الإنجازات تتم في بلادهم، بلادهم التي غادروها مرة والى الأبد، وكأنهم كانوا مطرودين منها.

ولن أسئ الى تاريخ هذه الأسرة، إذا قلت: ان الأيوبيين حقّقوا الوحدة السياسية لبلاد اليمن –ولو الى حين– وبقيت هذه الوحدة حتى بعد إنتهاء حكمهم، فلماذا لم يحقّقوا هذه الوحدة السياسية لبلادهم؟ أوَ لَمْ أقل أني أنفي وجود مثل هذه الرغبة أو النيّة عند صلاح الدين وأسرته الواسعة؟ وبذكر بلاد اليمن نقول: إنّ تورانشاه حين ضاقت به الحياة، وتبرّم من العيش في بلاد وخمة ونائية –مقارنة ببلاد الشام ومصر– إشتكى الى صلاح الدين وطلب منه أن يوافق على مطلبه في مغادرة اليمن، وبدأ في كتابة قصيدة بعثها الى القائد ذكر له فيها إحساسه بالغربة في تلك الديار وشوقه للعودة، ليس الى كردستان بل الى بلاد الشام... الى دمشق أو حلب أو مصر أو بغداد:

ما الدار إلا دمشق والمُنى حلب والسول مصر وفي الزوراء داري

ويلبّي صلاح الدين طلبه، ثم يموت تورانشاه في الأسكندرية سنة ٥٧٦هـ/١١٨٠م ويُدفن فيها... بعد ذلك تقرر أخته «ست الشام!» بنت أيوب نقل رفاته من تلك المدينة، لكن ليس الى أرض الأجداد في كردستان، بل الى دمشق، ودفنته في المدرسة التي أنشأتها بظاهر «ضاحية» دمشق[١].

وينبغي أن نعرف أن الدولة الأيوبية في اليمن لم تدم طويلاً هي الأخرى، فكانت نهايتها بعد ٥٥ سنة[٢].

نعود لنؤكد أن صلاح الدين لم يخطأ قط حين رسم الطريق الذي

١- إبن خلكان، ٣٠٧/١.
٢- دلير اسماعيل فرحان: الكُرد في اليمن. رسالة ماجستير. تمت مناقشتها في كلية الآداب/ اربيل في ٢٠٠٢/١/٣١.

سلكه، وهل كان اسمه يسطع لو فعل غير ما فعله؟ والاسم لايسطع مجاناً، ولن يسطع مهما كان الاعلان عنه قوياً، أو يتم تضخيمه ليل نهار، والمسألة ليست مسألة تضخيم الاسم.

نقول: لا، بالطبع لم يكن لينال هذا الإجلال والتقدير لو عمل غير ما عمله، والدليل هو أن ليس ثم قائد كردي أو غير كردي –في الحروب الصليبية خاصة– من له هذه الجاذبية، مثل جاذبية صلاح الدين، فكان نسيج وحده، وضرورة عصره، ألْهَمَ وما زال يُلهم، وقد ألهم حتى أعداءه الصليبيين، فعدّوه نموذجاً للقائد الملهم الشهم، والّف مؤرخوهم كتباً عنونوها بصفاته، فألّف چارلس روزبولت (Rosebault, Charles) كتابه بعنوان صلاح الدين أمير الشهامة، أو الفروسية Prince of Chivalry.

ويرى بعض كتّاب الغرب ان الملك الأنگليزي الشهير ريچارد قلب الأسد لم ينل شهرته وهذا الصيت الواسع بسبب بسالته وإنتصاراته، لأنه لم يكن باسلاً وإنتصاراته لم تكن بمستوى قدرات الحملة الصليبية الثالثة التي شنتها أوروپا إثر إنتصار حطين وفتح بيت المقدس، وسقوط عاصمة المملكة الصليبية، واستيلاء قوات صلاح الدين على أكثر مدن ساحل الشام الطويل، بل نال شهرته (اي ريچارد) لانه عاصر وصارع صلاح الدين، وعقد معه هدنة (أو صلح) الرملة قبيل عودته الى وطنه إنگلترا، وقبيل موت صلاح الدين. وصار صلاح الدين موضوعاً لروايات ومسرحيات وأفلام ومسلسلات في الشرق والغرب، وحتى من أساء اليه كان يبغي لعمله ولكتابته وشعره الرواج والتسويق على حساب هذا القائد. هل كان إسم شعبه الكرد سيلمع، كما لمع مع صلاح الدين. ان عظمته تتبدّى حينما نجد ان امپراطور ألمانيا «ولهلم» حين أراد أن يوطّد علاقة بلاده مع العالم الاسلامي ويجامل المسلمين (وليس الكرد، والكرد منهم) بعث قفصاً ليوضع على قبر أبرز زعماء الاسلام، فلم يختر قبر ملك أو خليفة أو سلطان أو قائد آخر غير صلاح الدين. فنجد بجانب قبر صلاح الدين في دمشق قفصاً جميلاً مهداة من هذا الامپراطور

الكبير، لاعتباره صلاح الدين رمزاً للمسلمين كافة، وإنتصارهم على العالم الغربي. رغم ان بلاده إشتركت في حملة عُدّت أعظم حملة صليبية تقوم بها دولة على إنفراد، وكان يقودها الامبراطور فردريك باربروسا «ذو اللحية الحمراء». وقد حسب صلاح الدين ألف حساب لهذه الحملة، وأصابه الهلع حين سمع تحرّكات الحملة وحجمها، وطلب من إبنه صاحب حلب الملك الظاهر غازي، أن يتسقّط أنباء سيرها. إلا أن ما حصل كان بمثابة «فرج من الله» حين غرق الإمبراطور في مياه نهر في بلاد الأناضول، ولم يصل الى القدس غير فلول قواته يقودها ابن الامبراطور. فكانت هدية الامبراطور ولهلم بمثابة إعتذار الى صلاح الدين كون أجداده قبل نحو ثمانية قرون ساهموا في حملة بتلك الخطورة. يعتذر لصلاح الدين، وليس لأحد غيره، يعتذر من ميّت حي، لأنه مثّل –ذات يوم– المسلمين جميعاً، لأنه دافع عن قضية المسلمين جميعاً.

من لنا طيلة تاريخنا إرتقى الى الذرى مثل صلاح الدين، وهو في قبره يهدي اليه إمبراطور قفصاً. صلاح الدين، وهو في قبره يخاطبه قائد الاحتلال الفرنسي الجنرال گورو حين دخل دمشق، يخاطبه بصفته مسؤولاً عما يحدث، رغم هذه المئات من السنين، يقول له: إنهض يا صلاح الدين، لقد عُدنا. اي ان المبارزة ما زالت تتواصل، المبارزة مع الشرق ممثلاً في صلاح الدين... وليس مع خليفة ما... مع سلطان ما... سلجوقي... أتابكي... مملوكي، رغم ما لهم من ادوار وصفحات مشرقة. لم يحدث أن خاطب قائد جيش محتلّ «منتصر» أحداً... أن يخاطب شخصاً مضى على موته قرون، ولكن گورو خاطب صلاح الدين، ليقول أن حملة صليبية جديدة قد بدأت، فإنهض لتواجهنا. لا شك أن هذه الدعوة فيها الكثير من التجريح والتشفّي، والإهانة لمشاعر الشعب المحتل، اي الشعب السوري، ولكن كانت ذروة التقدير والتعظيم لشأن صلاح الدين، على إعتبار أن أحداً من الأحياء لم يصدّهم، إذن إنهض

أنت وقُد جيشك لتصدّنا، يا رمز إنتصار المسلمين على الغرب. إنهض لترانا وقد إنتصرنا، وهزمتَ أنت يا قائد جبهة المسلمين. أنظر لقد إنقلبت الآية، وإن لم تصدّق إنهض لترى بعينيك ما حصل.

لقد كان كلامه مقصوداً، لكي يثبّت في أذهان السوريين أن المقاومة لن تجديهم نفعاً.

ما أشبه هذا الخطاب للجنرال الفرنسي في القرن العشرين، بما قاله جنرال أو أمير فرنسي في القرن الثاني عشر هو «رينو دي شاتيو» حين تحدى مشاعر المسلمين كافة، إثر سطوه على قافلة كبيرة مثقلة بالمؤن قادمة من مصر الى الشام، وخاطب رجال القافلة المسلمين بصلفه المعهود: إذهبوا الى «محمدكم» واطلبوا منه أن يأتي وينقذكم. طلب هذا اللص من المسلمين أن يستدعوا نبيّهم المرسل «ص» قبل نحو ستمائة سنة ليأتي وينجدهم. فما كان من قائد المسلمين إلاّ وأقسم أن ينتقم من (رينو)... ونفّذ قراره يوم انتصر فيه على رينو ورهطه... وإنتقم بيُمناه... وقد أمسك نيمچاه «سيفه القصير» – ولنقل خنجره الكردي البتّار... حين خلع كتفه، ثم طلب من رجاله إخراجه من سرادق النصر الأكبر، ليجهزوا عليه «ولم يقتله خلال مبارزة له معه، كما تظهره بعض الافلام والروايات».

وهذا يعني، أقصد كلمة گورو، ومن قبله رينو، ان ثمَّ قادة –وليس أنبياء فقط– ممن يبقون أحياء، ليس لدى شعوبهم فحسب، بل لدى أعدائهم كذلك، وهذا هو المهم.

أليس من المفارقة أن يخاطب الأحياءُ الأمواتَ، ولايخاطبوا «الأحياء»؟ لأن الأحياء «هؤلاء» كانوا أمواتاً... والأموات كانوا أحياء خالدين.

ثم علينا أن ننتبه الى خطورة سحب الحاضر الى الماضي، ومحاسبة ومحاكمة هذا الماضي وفق (وعلى ضوء) منظور راهن، فمقاييس الأزمنة، أو العصور التاريخية، في تقدير الأمور تختلف من عصر الى عصر، فهل يمكن أن نقيس قيم وأعراف الحاضر بالرؤية نفسها التي

كان أجدادنا يقيسونها؟ أو بالعكس؟ بالتأكيد لم يكن «كروچه» المذكور يعني هذا، وإلا فإن على الزمن أن يجمد (أو يكون قد جمد فعلاً) عند نقطة معيّنة لايجوز تخطيها، (وهذا هو شأن التفكير والتصور في المجتمعات الجامدة (الساكتة Static).

وعلينا أن نطبّق مفاهيم هذا العصر على أعمال وأهداف الأجداد، وصلاح الدين أوّلهم، ونحاسبه، بدل أن نحاسب أنفسنا، نحاسبه على شيء لم يكن لمن اوتيت له تلك الظروف، ولمن عاش في مثل تلك البيئة، أن يخطر بباله هذا الشيء الذي نحاسبه عليه، أقصد تشكيل دولة كردية. أو أن ننسى، أو نتخطّى الظروف التي تهيأت له ليصبح ما عرف به.

وعظماء التاريخ هم من عرفوا طبيعة عصرهم، وعرفوا ما هو مطلوب منهم، فركبوا متن أحداثه، وساقوه الى حيث وصلوا اليه في حينه، ربما ليس بكثير من الذكاء، فالبطل في التاريخ لن يغدو بطلاً بمحض إرادته، ولم يخلق في كفّ القدر، حسب ما يراه المفكر الانگليزي توماس كارليل «Thomas Carlyle 1881- 1795» في كتابه (في الأبطال وعبادة البطولة – On heroes and heroworship) وحسب ما يراه مشايعوه، بل أن البطل استثمر بذكائه قانون عصره، وعرف معادلة حركة المجتمع، وبدأ يسير قدماً لتحقيق الأهداف المطلوبة، بمساعدة الظروف الموضوعية. رغم أن إنجازاته تبدو للكثيرين بأنها من صنع عبقريته الفريدة.

قد لايكون هذا الفرد أعظم أقرانه ذكاءً وقوة وجماعةً، لكنه أعظمهم في تقدير الأمور، وأسرعهم في الصعود الى متن السفينة (أو الدبابة– لا فرق!) ولهذا فليست العربة هي التي تسحب البطل، بل هو من يدفع ويسوق العربة، وعربات الآخرين خلفه.

إننا بهذا لانستهين –قط– بعظمة وبسموّ الأبطال، أو نحطّ من مكانتهم، على إعتبار أنهم لم يكونوا فريد زمانهم، أو بوسع أي فرد آخر أن يسدّ مسدّه لو لم يكن موجوداً، ونحن نتحدّث عن قائدنا المبجّل

صلاح الدين، ولكننا نريد أن نقول: إنّ هذا الرجل هو –فقط هو– من إستثمر الظروف التي اوتيت له، فإجتمعت إرادته مع ذكائه، وبمساعدة القادة والمقاتلين الكرد الذين كانوا في معيّته، لتنفيذ متطلبات عصره، ليس بالشكل الجبري –الحتمي– (Determinism)– كما يراه الجبريون– بل بحيويّة، وبشكل متفاعل عبقري مقنع، بشكل يليق بالأبطال.

إذن فالظروف التي أوتيت لهذا الرجل وهو يعيش في كنف والده، وفي دولة نورالدين محمود، وهو يتمتع بريعان شبابه، ثم يصحب عمه في ثلاث حملات الى مصر، ويعيش تحت رعايته ورعاية نورالدين والخليفة الفاطمي، ثم حينما مات هؤلاء جميعاً، وعاش ليتحمل مسؤولية إدارة وجيش كوّنهما بجهوده، ويخط صفحة جديدة في تاريخ مصر. كل هذه الظروف لم تكن تمهّد له للتفكير في العودة الى حيث أتى منه جدّه ووالده وعمه ومن معهم، ويقيم دعائم دولة كردستانية. بل كانت ظروفاً ساقته اليه اوضاع مصر، وهذه الظروف كانت بمثابة (التحدّي) وكان عليه أن يستجيب، أو لايستجيب، فإستجاب، وحدث ما حدث، حسب منطق المؤرخ الشهير آرنولد توينبي (Arnold Toynbee -1886 -1975) والا لبقى (صلاح الدين) يواصل حياة الدعة بعيداً عن التطلع الى بناء مجدٍ كالذي بناه. وربما صار أميراً في كتيبة، أو مسؤولاً كبيراً في دولة نورالدين محمود، ولكن شاءت أحداث تلك الفترة، أن يحصل الحاصل، ولايحصل في التاريخ إلا ما هو منطقي.

وليس ثم عاقل يفرّط بتلك الفرصة، لإنشاء دولة في مصر، ثم يدمج معها أقاليم أخرى، فصارت دولته تمتد من بلاد برقة (ليبيا الشرقية) الى اليمن، ثم بلاد الشام وأجزاء واسعة من كردستان، وكلنا يعرف ما تعنيه مصر، أولاً، من ثقل اقتصادي وسياسي وسكاني، وماذا بوسع حاكم بيده كل هذه البلاد ان يعمل. أوَ يُعقل أن يترك صلاح الدين كل هذا المجد وما ينتظره، ثم يدير لجام فرسه، ويقرر العودة الى بلاده كردستان، وهو لم يرها ولا ولد على أرضها. وربما كان بوسع والده

وعمه أن يقوموا بهذه التجربة إن أرادا ذلك، وإن ساعدتهما الظروف.

ولعل من المناسب أن نذكر إن إقامة الكرد لدولة خارج اقليم سكنهم في كردستان، لم تكن التجربة الفريدة في التاريخ الاسلامي، فنذكر أن الكرد الجاوانيين «گاوانيين» سبقوا الايوبيين في تشكيل إمارة في أطراف بغداد إمتدت الى منطقة واسط على دجلة، في القرن الرابع والخامس الهجريين/ العاشر والحادي عشر الميلاديين. على الرغم من أن الكرد لم يبتعدوا عن موطنهم كثيراً، على عكس حالتهم مع التجربة الأيوبية في مصر وما بعدها. وكان الأمير أبو الفتح بن ورام الكردي الجاواني اشهر امرائهم، وقد حكم اكثر من نصف قرن (٤٠٣-٤٥٥/ ١٠١٢-١٠٦٣) أي أكثر من ضعف الفترة التي حكم فيها صلاح الدين، ولكن لا أحد عاتب أو حاسب هذا الأمير الجاواني، على عدم تشكيله لدولة في كردستان، بل ان الكثيرين يجهلون وجود دولة كهذه، ولم يعرف عنها أو يسمع عنها الا الباحث المتابع[1] وهذا يؤكد- مرة أخرى- ان صلاح الدين كان قائداً من طراز فريد، وليس غيره من يعاتب، وهذا العتاب والحساب لن يكون إلا لصالحه. لأنه وحده يحاكمه أحفاده بعد ثمانية قرون. ولكن علينا أن نضع حداً لهذه المحاكمة، ولهذا الضجيج، ونكف عن تعليق الآمال على رجل انتهى دوره الى الأبد، وبقي كأنموذج رائع. أقول نكف عن تعليق الآمال، لأن أرحام الأمهات لن تكف عن أنجاب رجال يليقون بعصرهم، ولنترك الأحياء ينفذون ما نحاسب صلاح الدين عليه، ونُساهم جميعُنا لتكون لنا عاصمة... لكن عاصمة توحّد... ليس إلاّ... عندها لن نطالب صلاح الدين بنقل عاصمته من القاهرة أو دمشق... الى مدينة كردستانية.

١- أنظر د. مصطفى جواد: جاوان القبيلة الكردية المنسية. مجلة المجمع العلمي العراقي. الجزء الأول مجلد ٤ سنة ١٩٥٦ وب. شرفخان: الامارة الجاوانية. مجلة مةتين- دهوك- االعدد ٥٤ تموز ١٩٩٦ وبوسع المتابع ان يلم بأخبار هذه الإمارة من مصادرها: ابن الجوزي: المنتظم ج٨ ابن الاثير الكامل ج٨ سبط ابن الجوزي في مرآة الزمان. وسنتحدث عن تجربة أيوبية لاحقة في مكانها المناسب.

ربما اطلتُ- بعض الشيء في الأجابة على هذا السؤال، يا صديقي، ولكن لابأس، ما دامت أفواهنا ملغومة بأسئلة، وبلوم ماضينا وحاضرنا، دعك عن مستقبلنا. وما دام الوضع يتطلب وضع النقاط على بعض التساؤلات الملتهبة(!) وسنجيب على باقي الأسئلة واعتذر إن كنت أكرّرُ بعض الأفكار في ثنايا الأجوبة من حيث لا أقصد، وبعض التكرار سببه طبيعة الأسئلة.

*** تسألني: هل كانت لصلاح الدين صلات مع الزعماء الكرد المعاصرين له؟ وهل كان ثمّ إمارة أو سلطة كَردية قائمة في تلك الفترة؟**

بوسعي أن أؤكد أن الزعماء الكرد صاروا ضمن دولة، وفي معية، صلاح الدين، في ركبه الذي يسير نحو تحقيق هدف عظيم هو تحرير أرض المقدّسات، بيت المقدس، وبقية فلسطين والشام، وحماية مصر من إحتمال إحتلالها. فلم يبق زعيم قبيلة معروفة إلا وإنخرط ضمن تشكيلات هذا القائد، أمّا من بقي بعيداً عن ساحة الوغى، فانه بقى لحماية جماعته من هجوم صليبي أو بيزنطي أو أرمني محتمل. إلاّ أن هؤلاء الزعماء لم يكونوا حكام إمارات، بل كانوا قادة قبائل.

أما إن كان ثمة إمارة أو سلطة كردية قائمة- عصرئذ- فأنا أنفي وجودها، وسبب ذلك، أو أهم أسبابه، هو أن الدولة السلجوقية قد إكتسحت ساحات كردستان ضمن ما أكتسحته من أراض، وتلا الوجود السلجوقي وريثتهم الأتابكة، وقد ساروا على نهج أسيادهم. ومن يلقي نظرة على الامارات التي تأسست في القرون الخوالي يجدها وقد أختفت عن المسرح السياسي، ولم نعد نرى حاكماً لأمارة كردية يضطلع بدور ما في جيش صلاح الدين أو خارجه، من ضمنها الامارة التي أسستها قبيلة صلاح الدين في وقت سابق، وهي الامارة الهذبانية، وكذا الامارة الروادية الكردية التي تمت بصلة «البطن» الى الهذبانية، وقد أنتهى

وجودها عام ٤٦٣هـ/ ١٠٧١م بعد أن شنّ السلطان السلجوقي الب ارسلان هجوماً عليها[١] اما الامارة الدوستكية، فلم يبق لها وجود منذ القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي[٢]. لذا يمكننا القول: أن إكتساح السلاجقة للمنطقة اولاً، ومن ثم ظهور القضية الصليبية التي جعلت جهود القوى الاسلامية كافة، عدا الخلافة العباسية، تتوجّه نحو الوقوف- بشكل إنفرادي، بوجه هذه القوة العاتية، ثانياً، كانا السبب لاختفاء هذه الامارات وضمور دورها. والمثل نفسه ينطبق على الامارات العربية التي كانت قائمة يومئذ في بلاد الشام، حين إختفت إمارات بني عمار في طرابلس، وإمارة بني منقذ في (شيزر) قرب حماه، ولا حاجة الى المزيد من الأمثلة. هذا وقد ألمحنا الى الصراع المذهبي بين الخلافتين العباسية في بغداد والفاطمية في مصر، وكيف آل أمر ضعفهما الى عدم قدرة الطرفين في الوقوف بوجه الموجة الصليبية.

وكان أمراء طرابلس وحماه وحمص في صراع دموي، فأمير حماه يقف ضد أمير حمص، بعد أن إنفصل كل منهما عن الآخر، وجعل مدينته «دولة» قائمة بذاتها تعادي جاراتها من المدن الاسلامية الأخرى، وكان الواحد منهم يرجو أن يهاجم الصليبيون امارة خصمه المسلم ليتشفى منه، وتضعف قدرته القتالية، ووصل حقد بعضهم حدّ إبرام إتفاق مع العدوّ المحتل على ضرب خصومهم من الأمراء[٣].

وحالة التشرذم هذه تجاوزت الامارات الكردية والامارات العربية، ووصلت الى الدولة السلجوقية في بعض أقاليمها، ولاسيّما في ديار الشام، فأمير دمشق دقاق بن تتش السلجوقي كان في صراع دموي مع أخيه رضوان بن تتش أمير حلب. لذا فعدم وجود إمارات أو سلطة

١- د. اسماعيل شكر رسول: الامارة الشدادية الكردية في بلاد ئاران. دار موكرياني للطباعة والنشر- أربيل ٢٠٠١- ص٧٨.
٢- عبد الرقيب يوسف: الدولة الدوستكية في كردستان الوسطى. بغداد ١٩٧٢.
٣- تيسير بن موسى: نظرة عربية على غزوات الفرنج. الدار العربية للكتاب. طرابلس/ ليبيا (د. ت) ص٧٣.

كردية إبّان بروز صلاح الدين كان أمراً معروفاً. وهذا الأمر بحاجة الى المزيد من الدراسة.

وقد إستفاد الصليبيون من حالة التشرذم بين الخلافتين، وتشعبات السلاجقة والأتابكة، وكذا وجود إمارات صغيرة هنا وهناك، فلم يجدوا أمامهم قوة إسلامية كبرى، أو موحّدة، بل وجدوا خلفاء وسلاطين وأمراء يتنازعون على بعض التلال، أو مجرى ماء، أو على حقل. وكان هذا أحد أسباب إنتصار الصليبيين في الحملة الأولى الناجحة بكل المقاييس.

*** على ذكر الخلافة العباسية الا تتحدّث لنا بشئ من التفصيل عن موقف هذه المؤسسة السياسية والشرعية "الدينية" من مجهودات صلاح الدين الجهادية بصفته محارباً في سبيل تحرير أرض المسلمين، ولاسيما بيت المقدس (اولى القبلتين وثالث الحرمين).**

إستمرّ وجود الخلافة العباسية نحو ثلثي القرن بعد وفاة صلاح الدين، وهذا يعني أنّ هذه الخلافة عاصرت اكثر من قرن ونصف القرن من عمر الحروب الصليبية التي دامت زهاء القرنين. إلا أن هذه المؤسسة (اقصد الخلافة) ظلّت رمزاً لعموم القوى والجماعات الحاكمة في العالم الاسلامي، ولاسيّما في المشرق، وحتى بلاد مصر «عدا فترة الخلافة الفاطمية التي دامت- هي الأخرى نحو قرنين».

بسبب هذه المكانة الدينية الرفيعة للخلافة في بغداد، كان من المؤمّل أن تكون لها اليد العليا- إن لم أقل القيادة- في الوقوف بوجه الغزاة.

إلا أن شيئاً من هذا لم يحصل، وكأن الأمر لا يعنيها، أو ليس من شأنها!.

وان مهمّتها الأساسية هي حماية ممتلكاتها التي صارت لا تتجاوز بغداد وضواحيها بل غدت أشبه بامارة أو مملكة صغيرة، إذا عرفنا أن مدينة الحلة[١] القريبة من بغداد خرجت عن حكم الخلافة، وكذا الداقوق

١- وكانت تسمّى بـ«حلة الاكراد» إبن الجوزي، المنتظم، ج٨ ص٢٢٥. لأن الأكراد شيّدوها.

وتكريت، ناهيك عن أربيل وشهرزور والموصل. بل أن الخلافة عجزت عن حماية هذه المملكة الصغيرة التي كانت تتعرّض لأطماع القوى المحليّة من فترة الى أخرى، أو أطماع قوى إسلامية قريبة أو بعيدة عنها. كما حصل حين هاجمها خوارزمشاه، ولا حاجة الى ذكر ما حصل لها مع البويهيين والسلاجقة، فلم يبق للخليفة شئ غير إسمه وألقابه المضخمة، وغابت عنه هيبته السابقة.

لكن علينا أن نذكر أن الخلافة عادت اليها عافيتها بعض الشئ في عهد بعض خلفائها، ولاسيّما بعد أن ضعف نفوذ السلاجقة. وفي فترة إنتعاشها النسبي هذه كان ظهور صلاح الدين الذي ظل يعتبر الخلافة المؤسسة الشرعية التي يحارب تحت أمرتها، ويدعو لها الخطباء أيام الجمعة، وتسك بإسمها النقود.

ولم ين هذا القائد منذ أن أحدث إنقلابه التدريجي على الحكم الفاطمي (الشيعي الاسماعيلي) يعلن أنه من أتباع الخلافة العباسيّة «السنيّة» وصار يبعث برسائله الى بغداد بهذا المعنى في كل مناسبة، يخبرها فيها ما يحصل في دولته الناشئة، وإنه يحتاج الى مساندتها المعنوية، ويبعث اليها هداياه الثمينة، بينها أثمن ما تركته الخلافة الفاطمية.

إلا أن الخلافة لم تهتم بما يجري على الساحة من إحتلال ومقاومة، والدليل أن أخبار الحروب الصليبية وإحتلالهم للمدن العربية، والمجزرة البشعة التي أحدثوها في القدس، لم يهتم بذكرها مؤرخ في بغداد، وكأن الأمر لا يعنيهم، في حين كانت القضية الأولى لكتّاب ومؤرّخي بلاد الشام. ونذكر- على سبيل المثال- مؤرخ العراق الشهير المعاصر لتلك الأحداث إبن الجوزي (ت ٥٩٧هـ/١٠٢١م) صاحب التصانيف الغزيرة. ففي أشهر كتبه (المنتظم في تاريخ الملوك والأمم) الذي يقع في عشر مجلّدات، دوّن فيه تاريخ الفترات السابقة حتى وصل الى سنة ٥٧٤هـ لم يتطرق الى ذكر صلاح الدين، لا من قريب ولا من بعيد. بل انه حين

يتحدث عن وفاة نورالدين محمود، يذكر إسمه دون أن يعطيه حقّه من الأحترام والتقدير. وحين ذكر خبر إرسال القوة الى مصر أكتفى بالقول بالحرف الواحد «وبعث جنوداً افتتحوا مصر» دون ذكر إسم شيركو وصلاح الدين. إضافة الى حذفه لأخبار الحملات الصليبية، وسقوط بيت المقدس، وإقامة كيانات عديدة من أقصى الشمال الى مملكة بيت المقدس، بعد أن أحدثوا في المدينة المقدسة مجازر رهيبة تقشعّر منها الأبدان، حسب وصف مؤرخي الحملات الصليبيين أنفسهم ولاسيّما والمؤرخ الشهير وليم الصوري William of Tyre (وليس هذا موضوعنا). وما نبغي الحديث عنه هو صمت مؤرخ بغداد عما جرى[1]، منسجماً مع صمت ولا مبالاة الخليفة أمير المؤمنين. هذا كان موقف بغداد من صلاح الدين، أما الموقف معكوساً فكان واضحاً وضوح الشمس.

والواقع أن الموقف المنتظر من صلاح الدين هو الا ينتظر من الخلافة أن تفعل شيئاً لصالح مسألة الجهاد، إلا أنه مع ذلك وجّه عدداً كبيراً من الخطابات الى بغداد لإعلام الخليفة فيها بالتطورات التي تحصل، منذ أن أستقرّت سلطته في مصر، في محاولة منه للحصول على أعتراف بشرعية حكمه والأجراءات التي ينفذها، أو ليبين للخليفة عن نواياه المقبلة، أو ما سيقدم عليه، إضافة الى أنه حاول- بتلك الخطابات- أن يحرّك هِمّة- وهل أقول غيرة؟ - الخليفة ويجعله يحسّ بخطورة ما يجري، ولكي يوضّح له معاناته مع القوى (الاسلامية) المحلية التي لم يكن يهمّها شئ أكثر من مصالحها الآنية في البقاء في الحكم، أو لأسباب أخرى كما سنرى.

إلاّ أن صلاح الدين لم يقبض من بغداد، رغم تلك الخطابات البديعة، سوى الريح. وقد تمسك القائد بهذه السياسة الحكيمة في مراحل تاريخه

١- في حين ذكر إبن الجوزي هذا الخبر «ولدت امرأة من جيراننا في بطن واحدة ثلاثة، إبن وبنتان» المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ج٨ ص٢٨٣. أو «جاءه خبر من الجانب الآخر من بغداد: أن ديكاً قد باض»(!).

كافّة، إبتداءً من عهد وزارته المبكر في مصر، حتى إنعقاد مجلس حربه الأخير والخطير الذي تم للتشاور فيه بشأن عقد هدنة مع الصليبيين.

وكانت هذه الخطابات البليغة يحرّرها إثنان من أعظم قادة القلم وكتّاب الرسائل يومئذ، هما عبد الرحيم بن علي البيساني الشهير بالقاضي الفاضل (ت٥٩٦هـ/ ١٢٠٠م) صاحب التصانيف الجميلة، وأوحد زمانه في رجاحة العقل وتحرير الرسائل.

وقد شبّهه العماد الكاتب الأصفهاني- الآتي ذكره بعد قليل- بالشريعة المحمّدية التي نسخت الشرائع... وسمّاه ب «صاحب القرآن» لمزاملته التلاوة ليل نهار. أما ثانيهما فهو عمادالدين محمد بن صفي الدين محمد بن حامد، الشهير بالعماد الأصفهاني (ت٥٩٧هـ/١٢٠١م) وهو من الّف كتباً عن تاريخ السلاحقة والأتابكة، ثم عن معارك صلاح الدين حيث الّف كتابه المعروف «الفتح القسيّ في الفتح القدسي» و«البرق الشامي» في خمس مجلدات، إضافة الى موسوعته الضخمة في مجلدات «جريدة القصر وخريدة العصر» وكتب أخرى بعضها مفقود.

كانت الرسائل التي يحرّرانها للخليفة العباسي بمثابة (بارومتر) لقياس مستوى علاقة صلاح الدين مع بغداد، من حيث درجة التوتر بينهما[1]. فقد بقي موقف الخليفة المستضيء بالله[2] متأرجحاً- غير واضح من صلاح الدين، فلم ينصره في قضية توحيد وترصين الجبهة الأسلامية، أو تحرير الأرض، ولا منع أمراءه التابعين له- إسمياً- ولاسيما ملوك الموصل من الأتابكة – من التحالف مع الصليبيين ضدّه

١- لا أرى داعياً لذكر تلك المناسبات التي بعث فيها صلاح الدين رسائله الى دار الخلافة، لأن ذلك سيكون عملاً خارج إطار موضوعنا. ومن يريد أن يطلع على فحوى تلك الرسائل فليراجع بحثنا المنشور في مجلة «مةتين» تحت عنوان «رسائل صلاح الدين... الفحوى والمغزى» باللغة الكردية. العدد ٥٤ لسنة ١٩٩٦.

٢- حكم بين ٥٦٦-٥٧٥هـ/ ١١٧٠-١١٧٩م، وهو أول خليفة عاصر حكم صلاح‌الدين.

والتعرض له.

بل أن الخليفة لم يحرّك ساكناً حين تعرّضت أرض الحرمين الى غزو صليبي خطير، قطع فيه- الغزو- مراحل متقدّمة للوصول الى غايته، والأعتداء على مثوى الرسول الكريم «ص»[1]. رغم أن صلاح الدين بعث بأكثر من رسالة الى الخليفة في هذه المناسبة المذهلة التي أحرز فيها رجاله الأشاوس نصراً بحرياً وبرّياً مؤزراً على المعتدين، مما زاد مكانته سمّواً على سموّ، وإقتصّ منهم بما يستحقّونه[2].

والملفت للنظر أن يشبّه القاضي الفاضل هذا الغزو الصليبي بما تعرّضت له مدينة الرسول «صلعم» قبل ذلك بأكثر من ستمائة سنة بأيدي أصحاب الفيل بقيادة أبرهة[3].

كما بعث الى الخليفة رسائل بقلم الكاتبين الكبيرين كليهما، لمناسبة إنتصار حطين، رويا فيها الأستعدادات التي تمّت، وكيف تم إحراز النصر الكبير، وأسر وقتل الجيش الصليبي برمّته، وشبّها حطين بمعركة بدر الكبرى، وعهد صلاح الدين بعهد الرسالة المحّمدية (صلعم)، وصار الكاتبات يتباريان في الكتابة وتضمينها بالآيات القرآنية والأحاديث والحكم. كما بعث صلاح الدين تاج ملك الصليبيين «گي لوزينيان» الذي تم اسره في حطين، مصحوباً بصليب الصلبوت الذي فيه قطعة من خشب صلب عليه السيد المسيح «ع» والذي انتزع من القدس بعد فتحها»[4].

استمرت هذه العلاقات (الباردة) بين الطرفين، مع شئ من الودّ الحذر في الأيام الأخيرة من عهد الخليفة المذكور «المستضئ»، كما إستمرت في

١- أنظر بحثنا «محاولات لانقاذ مثوى الرسول الكريم بين الخيال والحقيقة» مجلة الرسالة الأسلامية. بغداد. العدد ١٧٨-١٧٩. ١٩٨٥ وبالكردية في مجلة (روشنبيري نوي) العدد (١٠٣-١٠٤) لسنة ١٩٨٤

٢- أنظر إبن جبير في رحلته. ط ٦٤. ص ٣٤. وكان شاهد عيان لبعض ما حصل.

٣- إبن واصل: مفرج الكروب. ١٢٨/٢.

٤- عمادالدين الكاتب: الفتح القسيّ: ص ١٧٠-١٧٢.

عهد الخليفة الناصر لدين الله (٥٧٥-٦٢٢ هـ/ ١١٧٩-١٢٢٥م) وقد عاصر هذا الخليفة بقية حياة صلاح الدين (ت ٥٨٩هـ/ ١١٩٣م).

ويبدو من طبيعة هذه العلاقة ان الخليفة كان يبحث عن حجة لكي يفجّر بها الموقف مع صلاح الدين بعد أن أرتفعت هامته فوق الهامات كلها، ولاسيّما بعد موقعة حطين وفتح بيت المقدس عام ٥٨٣هـ/١١٨٧م، ووصلت الى ذرى المجد. وقد «عثر» الخليفة على الحجة حين أتهم صلاح الدين بأرسال نبأ انتصاره في حطين مع رجل من عامة الناس، هارب من بغداد(!) ولم يبعثه مع رجل من علية القوم، وهو رشيد الدين البوشنجي البغدادي، لذا لم يهنّئ الخليفة صلاح الدين، ولم يرد على خطابه. وكان البوشنجي قد غادر بغداد(دون إذن الخليفة) والتجأ الى ركب صلاح الدين بقصد الجهاد، مما أغضب الخليفة. لذا تصرّف الخليفة مع هذا الرجل بصلف غير مُبرّر، لا يليق بمقامه، ولا بالمهمة التي جاء البوشنجي من أجلها.

فأقام الخليفة الدنيا ولم يقعدها، ودفع المشرفين على (ديوان الخلافة العزيز)- أي كبار موظفي البلاط- الى إهانة مبعوث صلاح الدين.

وأضاف الخليفة الى تلك الحجة الباهتة حجة أخرى، فاتّهم صلاح الدين بإتخاذ لقب (الملك الناصر) وهو نفس لقب (الخليفة الناصر)، وأنه- أي صلاح الدين- يبغي قلب الدولة العباسية بحمله هذا اللقب، وأرسل خطاباً قاسياً اليه بهذا الصدد وبلغة فظّة.

إندهش صلاح الدين من هذه التهمة، لكنه حافظ على رباطة جأشه، وأعلن عدم تصديقه لما يحصل، وأن الخليفة لا يمكن أن يتفوّه بتلك الالفاظ الفجّة، وأنه ما زال يقيم الخطبة بأسم الخليفة في كل مكان استطاع جنده الوصول اليه، ويضمّه الى جهوده التوحيدية. أما لقبه (الناصر) فهو من الخليفة العاضد الفاطمي، منحه إياه أيام ما كان الخليفة في بغداد هو المستضئ بالله (والد الخليفة الحالي) حين عيّن (يوسف/ صلاح الدين) وزيراً للدولة المصرية خلفاً لعمه شيركو الذي

لقبه بالملك المنصور أسد الدين شيركو، وصار اسم يوسف «الملك الناصر صلاح الدين والدنيا». وأضاف صلاح الدين الى مبعوث بغداد قوله: «والآن كل ما يشرّفني به أمير المؤمنين من السمة هو أسمى لي من الذي هو إسمي... وما عزمي إلاّ إستكمال الفتوح لأمير المؤمنين.

بعد هذا الموقف الودّي من صلاح الدين، والخليفة مستمر في البحث عن الحجج لعدم إسهام جنده في القتال الى جانب جند القائد المجاهد. والواقع أن جند بغداد كفّوا منذ فترة طويلة في الأسهام في معركة جهادية، أو دفاعاً عن حياض الأسلام. فصاروا جنداً مهمتهم الدفاع عن الخليفة وحكمه، وهذا يعني أن الجيش العباسي صار قوة توجّه لضرب أعداء أو خصوم الدولة في الداخل، أي صارت منظمة للأمن الداخلي، أشبه بالشرطة المحلّية.

وبلغت إستهانة الخليفة بانتصارات صلاح الدين ذروتها حين بعث برسالة الى صلاح الدين جاء فيها: يفتخر علينا صلاح الدين بالقدس(!) وهل فتحها إلاّ بعساكرنا، وتحت راياتنا!. وهذا منتهى التبجّح والأفتراء على الحقيقة، إذ لم تساهم سواعد المقاتلين الكرد البواسل ضمن عساكر الخليفة يوماً، ولم يحارب هؤلاء الجند تحت الراية السوداء العباسية، بل جاهدوا باستماتة تخلب الألباب، وتليق بهم، تحت الراية الصفراء الصلاحية.

إستشاط صلاح الدين غضباً، وكان ينتظر أن تأتيه خطابات من بغداد يحمد فيها الخليفة الناصر لدين الله، ويُثني على جهوده الجبّارة في فتح بيت المقدس. فاعلن لمبعوث الخليفة بغضب غير معهود: أما البوشنجي فمن عندكم قدم الينا. وقيل لنا انه من بيت معروف كبير، وصحبني وطلب مني أن أبعثه الى بغداد ليُمنّ على أهله فيها. أما اللقب فما إخترته أنا، ولكن لمّا أزلتُ دولةَ عدوّكم [يقصد الفاطميين] التي كانت قائمة منذ أكثر من مائتي سنة، لقّبني الخليفة المستضئ بذلك (كذا) ولم يكن في زمانكم. ومع هذا ففي عسكري عشرة آلاف جندي(!) لقب كل

واحد منهم (صلاح الدين). وأما بيت المقدس فما فتحته الا بعساكري، وتحت راياتي.

وبذلك تأكّدت الوحشة «القطيعة» باطناً، وأمسك- صلاح الدين- نفسه ظاهراً، وكان الغضب يعتمل في داخله. وطلب القاضي الفاضل- بحكمته المعهودة- من صلاح الدين أن يسدّ هذا الباب، وأن الضرورة تقضي أن تندمل الجروح. أما ما حصل للبوشنجي، فقد عاد الى جيش الجهاد، ونالته الشهادة التي من أجلها جاء أصلاً، لكي يتباهى باستشهاده أهل بغداد المقصّرين عن واجبهم في سوح الجهاد.

استمرّ الخليفة على موقفه، وأستمرّ تدهور العلاقة بينهما. وأكّد ذلك مصرع أمير الحج الذي عيّنه صلاح الدين للإشراف على شؤون حجاج بيت الله من رعايا دولته، فبينما كان القائد ينتقل في جهاده بين بلدتي صور وعكا، وصله نبأ مصرع شمس الدين بن المقدم محمد شيخ أمراء الأسلام، كما يصفه المؤرخ إبن واصل، وذلك بمنى عرفات بيد رجال أمير حج العراق طاشتكين محي الدين المعيّن من الخليفة العباسي. فحزن صلاح الدين وبكى، وأقسم أن ينتصر «ينتقم» لابن المقدّم، قائلاً: قتلني الله إن لم أنتصر له. عندها أبدى الخليفة أسفه لما حصل. ونعى مؤرخو العصر إبن المقدّم، واعتبروه شهيد الجهاد وفتح بيت المقدس.[1]

ظل صلاح الدين يعلق آمالاً على كسب ودّ الخليفة، رغم كل ما حصل، وعاد الى مخاطبته، ولاسيّما بعد سنة ٥٨٥هـ/١١٨٩م حين طلب من بغداد مساعدات كجزء من الاستنفار الاسلامي العام، وذلك لشدّة الحصار الصليبي على مدينة عكا الذي دام اثنين وعشرين شهراً، يعد أطول حصار لمدينة في تاريخ الحروب الصليبية، وربما في تاريخ العصر الوسيط الاسلامي، وكذلك للوقوف بوجه الحملة الالمانية الهائلة. فأنتدب الى بغداد قاضي عسكره المؤرخ بهاء الدين بن شدّاد ليشرح لأمير المؤمنين ما يحصل في ساحة فلسطين والشام «وتحريك عزم الخليفة على

١- مفرج الكروب: ٢/٢٥١.

المعاونة.[1]

لم يقدّر الخليفة الموقف كما ينبغي، فأكتفى بتجهيز حملين من النفط وخمسة زراقين (رماة النفط على العدو بالأنابيب لحرقهم) إضافة الى ورقة بتوقيع الخليفة تتضمّن السماح لصلاح الدين باقتراض عشرين الف دينار، من تجار الشام لينفقه على جهاده، على حساب الخليفة. وكان هذا اول وآخر معونة - على ضآلتها- تقدّمها الخلافة للمجهود الحربي الأسلامي، وتحرير ارض المقدّسات والدفاع عن فلسطين ضد الوجود الصليبي.

ابدى صلاح الدين استغرابه من ضآلة حجّم المعونة، فترحّم على الخليفة العاضد الفاطمي الذي لم يبخل، وبذل ما في وسعه لدفع الصليبيين عن دمياط عام ٥٦٥هـ/١١٧٠م. وكاد صلاح الدين أن يرفض هذه المعونة ويعيدها الى حيث أتت، لكن أصحابه أثنوه عن عزمه، فقبلها عن مضض، لكن دون أن يقترض من تجار الشام المبلغ المذكور الزهيد.

أن هذا الموقف الغريب الذي لاينسجم مع سموّ ورفعة مكانة الخلافة، جعل القاضي الفاضل يطلق ملاحظات مريرة قائلاً: «كتاب بغداد كتاب بارد، غثّ جامد، ما فيه مقصود لقاصد، ولا صلة ولا عائد، نحن نطلب الذهب الحار، فيضرب في حديد بارد»[2]. وعلّق باحث على هذا الموقف قائلاً: كان موقف الخليفة العباسي من الحروب الصليبية يدعو للرثاء، لأنه لم يقدّر خطورتهم على البلاد، اضافة الى أنه لم يعمل على توحيد كلمة المسلمين في المنطقة ليسند القوة الأيونية التي تتصدّى لهم[3].

ووصلت العلاقة بينهما من التردّي حداً بات الخليفة معه يتصل بخصوم صلاح الدين أو المخالفين لجهوده من المنشقيّن عنه، محاولاً

١- إبن شداد: النوادر، ص١١٥.
٢- أبو شامة: كتاب الروضتين: ٢/١٧٦.
٣- د. محمد صالح داود القزاز: الحياة السياسية في العراق في العصر العباسي الأخير ص١٥٥.

خلق متاعب تحدُّ من مكانة هذا القائد ومن علوّ شأنه وتعلّق الناس به. وكان من بين هؤلاء المخالفين سيف الدين بكتمر الذي هرب من خلاط بأرمينيا، إثر محاولاته الفاشلة في الأستيلاء على تلك الديار إثر وفاة شاه أرمن[1]. وكذلك إتصل الخليفة الى الأمير حسن بن يعقوب بن قفجاق، سليل أسرة تركمانية كانت لها السيادة في منطقة الكرخيني (كركوك) وقلاع شهرزور[2]. وقد دخلت هذه الامارة في طاعة الخليفة للحيلولة دون ضم بقاياها الى دولة صلاح الدين.

وحين بدأ الأمير حسن يثير المشاكل للملك المعظم مظفر الدين گوگبُري، صهر صلاح الدين، صاحب إمارة أربيل المحاذية للامارة القفجاقية[3]، ألقى گوگبُري القبض عليه، مما أثار حنق الخليفة، فأحتج على هذا التصرّف، فبعث رسولاً الى صلاح الدين يحمل معه مطاليب الخليفة، هي: عدم التعرّض لسيف الدين بكتمر، والأيعاز الى صهره صاحب أربيل بأطلاق سراح الأمير حسن، كما طلب منه أن يرسل مستشاره القاضي الفاضل الى بغداد للتفاهم معه، ولوضع حدّ لما يحصل بين الطرفين.

إلا أن صلاح الدين أجاب على هذه المطاليب من منطلقه الخاص، وكان جوابه دليلاً على مدى تردّي العلاقة بينهما. فبرّر إعتقال مظفر الدين گوگبُري للأمير حسن كونه يثير الأضطرابات في تلك المنطقة الواقعة بين مملكة الخليفة وإمارة گوگبُري في أربيل[4]. وقال صلاح الدين: إنّا قد أمرنا گوگبُري بأحضار الأمير حسن الى الشام ليلازم فيها الجهاد. أما ما يخصّ إيفاد القاضي الفاضل الى بغداد فإنه إعتذر عن ذلك، لأن القاضي يعاني من متاعب صحية «كثير الأمراض، وأن

١- إبن واصل: ٢٨٨/٢.
٢- أنظر كتابنا: أربيل في العهد الأتابكي. ص: ١٧٩-١٨٢.
٣- إبن خلكان. ط ١٩٤٨، ١٨٩/٦.
٤- إبن شداد: ١٩٩.

قوّته ضعفت عن الحركة الى العراق»[1].

إن هذه الوتيرة من العلاقة بين الخلافة العباسية وقيادة صلاح الدين أصبحت حديث الناس، العام والخاص، وكانت في النتيجة لصالح الجهاد، ولغير صالح الخليفة، بسبب تعلق الناس بقائد باسل ملهم، ولما أحيط به من جاذبية فريدة. وحاول الخليفة- عبثاً- الحدّ من هذه الجاذبية، بل منعها!، حتى صار التعلُّق بصلاح الدين والتحدّث عن جهوده وإنتصاراته تهمة يعاقب عليها الشخص، وكان هذا وسيلة للوشاية بالبعض، «وأتهامهم» بمحبة صلاح الدين، ثم الأقتصاص منهم[2].

لاشك أن ما حصل يدعو الى الدهشة لما وصلت اليه العلاقة بين قطبي الرحى من أقطاب العالم الأسلامي، كان المفروض أن يضمّا صفوفهما الى بعضهما، ويتفاهما على حلّ خلافاتهما- إن كان ثمة خلافات أصلاً- ويقرّرا رأب الصدع للحيلولة دون التفريط بمصالح الأمّة، ونبذ الخلافات للتصدّي لعدوٍ يحتل أرضاً مقدّسة لدى كل المسلمين، وأن يميّز خليفة المسلمين بين العداوة والخصومة، وقد أثبتنا أن صلاح الدين لم يكن خصماً للخليفة حتى لمدة يوم واحد، وقد أدركنا ذلك من خلال رسائله العديدة، ومن أسلوبها الراقي البليغ، وإحساس صلاح الدين بمنتهى مسؤولياته تجاه أرض المسلمين كافة، ومحاولاته لوضع الخليفة أمام مسؤولياته- هو الآخر- بدفعه الى ساحة الجهاد، والأستفادة من إمكانات الدولة العباسية، المادية والمعنوية، بنفوذها الروحي.

وها نجد الخلافة اليوم أمام التاريخ، يسائله، ثم يحاكمه، ويدينه، عما بدر منه من لا مُبالاة ومن تقصير خطير، وصل الى حدّ عدم استشهاد جندي واحد من جنود الخلافة على ربى فلسطين، أو دفاعاً عن بيت المقدس، وعن أنطاكية وطرابلس وصور وبيروت ويافا وعسقلان. نكتفي

١- ن. م. ص.
٢- د. القزاز: مرجع سابق. ص: ٢٦٩.

بهذا القدر للأجابة على السؤال المطروح.

ولكن يبقى أن نروي هذه الطريفة:

إننا في الوقت الذي إستندنا على الرسائل التي بعث بها القائد الى الخليفة، لنؤكد صواب ما حصل، إضافة الى أعتمادنا على مصادر عصر صلاح الدين، وكذلك البحوث التي تناولت وعالجت هذا الموضوع بتجرّد وإنصاف، نجد شخصاً أسمى نفسه (حسن الأمين) نشر مقالاً تحت عنوان (صلاح الدين الأيوبي... نظرة مختلفة» في مجلة (العربي) الصادرة في الكويت، العدد (٤٤٢) سپتمبر ١٩٩٥. يشوه فيه جبين الحقيقة، ويلطخ وجه التاريخ، بجملة من السموم والأحقاد، وقلب الصورة تحت شعار برّاق زائف «حاجتنا الدائمة الى إعادة النظر... والى النظرة النقدية... وفحص الثوابت»، كلام جميل ولا شك، ثم يتساءل الكاتب في إطلالة مقاله: الى متى نظل نأخذ تاريخنا المكتوب كما هو على (عجره وبجره «!» دون التمييز بين ما كتبه الكاتبون مخلصين، وبين ما دسّه الداسّون مفترين(!) [علامات التعجب من عندي] وسلاح كاتبنا (الأمين) هذا هو ضرورة تبيان فضائل المجاهدين عمادالدين زنكي وإبنه نورالدين محمود. وإن المؤرخين أو بالأحرى الباحثين في التاريخ قد أهملوا شأن هذين البطلين ورفعوا من شأن صلاح الدين، فصار «وجه الثناء كله الى صلاح الدين، وأعتبر هو بطل الخلاص وقائد التحرير»... الخ وليس من المعقول أن أنقل كلَّ ماكتبه هذا الكاتب، وهو يحرّف الكلم.

ولكننا نقول أن جهود هذا الكاتب تنصب في ذكر عظمة عمادالدين زنكي التي لا ينكرها أحد، إلا من كان أعمى، من كان مغالطاً مشوّهاً للحقيقة. فيتحدث عن «عمادالدين ينهض» ثم يتحدّث عن جهاد إبنه نورالدين محمود. أما صلاح الدين فإنه لم يفعل شيئاً(!) سوى أنه إنتصر في حطين(!) وحرّر بيت المقدس(!) وهي مدينة لا تختلف عن باقي مدن فلسطين(!) وكأنها ليست أولى القبلتين وثالث الحرمين، عند المسلمين كافة، ولا فيها المسجد الأقصى المذكور في القرآن الكريم، أو

قبّة الصخرة، والحرم الابراهيمي، ولا منها كان الإسراء والمعراج!... مدينة- كما يقول الكاتب- لا تختلف عن يافا ونابلس وغزة وعكا... الخ.

قد يبدو في كلام (حسن الأمين) جانباً من الصواب. لكننا سرعان ما نجده يخلط السم بالدسم، فتحت عنوان «ضدّ الخليفة» يدبج نصف مقاله للكلام عن مجهودات الخليفة المجاهد، الحربية، قائلاً: لما بلغت الخليفة (أحمد الناصر) العباسي أنباء الحرب في فلسطين... صمّم على أن يوجّه جيشه القوي(!) الى جبهات القتال... لإسترداد البلاد الأسلامية. وكان لابُدّ لإنفاذ ذلك من التفاهم مع صلاح الدين الذي يقود المقاتلين هناك... لمعاونته في قتال الصليبيين. ولكن صلاح الدين رفض ذلك- هكذا (!)- وخوفاً من أن يصرّ الخليفة على إرسال جيشه بادر صلاح الدين الى التفاهم(!) مع الصليبيين (تصوّر هذا الكلام)، وإعلان وقف القتال بينه وبينهم للتفرغ لقتال جيش الخلافة بالتعاون بينه وبين الصليبيين لمقابلة هذا الجيش في صف واحد. هكذا يقول الأمين.

لقد قلّبت مصادر تاريخ صلاح الدين كلّها، منذ أكثر من ثلاثين سنة، فلم أجد ولو إشارة الى مثل هذا التحرّك من خليفة بغداد، ولو من قبيل الدعاية، ولو كان شئ من هذا يحصل لما سكت إبن الأثير عن ذكره، وهو المؤرخ المعروف عنه توجيه إنتقادات، مبرّرة أو غير مبرّرة، الى صلاح الدين، وقد تناولنا موقف إبن الأثير من صلاح الدين في بحث نشرناه عام ١٩٧٥.

دهشتي أن ينشر مقال كهذا في مجلة (العربي)، وزادت دهشتي حينما رفضت هذه المجلّة نشر ردّي عليه، وحجّة المجلة هي أن ردّي فيه قسوة تُخرج المجلة عن تقاليدها إذا نشر الردّ فيها. وهذا هو قرار الخبير. وأتساءل: إن كانت المجلة قد أرسلت مقال الأمين الى خبير، وإن كان الخبير قد وافق على نشره، وفيه كل هذه المغالطات والدسّ على التاريخ؟ ثم يقول الأمين: كان من الطبيعي أن يستغل الصليبيون حاجة صلاح الدين اليهم (في حربه ضد الخليفة العباسي) أحسن إستغلال،

فطالبوا صلاح الدين بأن يعيد اليهم ما أخذه منهم من مدن فلسطين، فأستجاب صلاح الدين لطلبهم (كذا) وأعاد اليهم المدن ما عدا القدس.

أتساءل: لماذا أخذ صلاح الدين هذه المدن من الصليبيين أصلاً؟ لماذا خلق لنفسه كل هذه المتاعب؟ لماذا لم ينخرط في صفوف الصليبيين منذ البداية ليقف ضد الخليفة العباسي الغيور الذي أستشهد آلاف من جنود جيشه في ساحة الوغى(!) وكان سيستشهد منهم أكثر، في عملية التحرير، وتحرير بقية فلسطين والشام لو لا وقوف صلاح الدين بوجه جيشه(!) ولولا – عمالة صلاح الدين للصليبيين(!). إذن فصلاح الدين بموقفه صار ينعم بالراحة وتخلّى على خوض المعارك، والاشتباك مع الصليبيين(!) وإنتهى... أو أنهى دوره، وصار يستجم في قصوره وعلى شرفاتها على ضفاف أحد أنهار بلاد الواق الواق... ويخدمه الخدم والحشم، ويرتدي الملابس المزركشة، ويتعطر بأفخر العطور(!) ويضع على رأسه ريش النعام مرصعاً بجوهرة ثمينة مجلوبة من بلاد الهند(!) ويتلذّذ بحياة الدعة في مجالس شربه مع غلمانه ومغنياته وعازفاته!.

هكذا كانت– أو صارت– حياة صلاح الدين(!) ومن يقول غير هذا فهو مغالط... أو أنه يفتقر الى نظرة نقدية... أو أنه دسّاس مفترٍ(!) على طريقة كاتبنا الذي قلب معادلات وحقائق التاريخ كلّها بجرّة قلم. هكذا إذن يمكن أن نكذّب التاريخ بمنهجية فريدة لم يفطن اليها أحد سوى حسن الأمين. إذن لن نخشى بعد اليوم أن نقول أي شئ، ما دامت صفحات المجلات مشرعة بوجه أي شخص يريد أن يجرّب حظّه لكي يشتهر، على طريقة (خالف تعرف)، دون أن يخشى رقيباً... أو يحسب حساب عقل القارئ في زمن بات من غير السهل أن نكذب... وعين الحسود فيها عود.

ويختتم حسن الأمين كلامه ليتساءل:

ماذا كان يمكن أن يحدث لو أن صلاح الدين لم يستسلم للصليبيين و(يتحالف) معهم، ودخل جيش الخلافة الى فلسطين، وطرد الصليبيين

منه؟ [ويقول في هامش الصفحة: إن عدد جند بغداد كان مائة وعشرين الف فارس(!)].

ونحن بدورنا نتساءل: إذا كانت الخلافة تملك جيشاً عرمرماً بهذا الحجم المهول (في وقت لم يتجاوز تعداد جيش صلاح الدين إثني عشر الف فارس في موقعة حطين(!) فلماذا لم يَحْمِ بغداد من حكم الديالمة البوبهيين، وأتراك أمرة الأمراء، ثم السلاجقة، وأخيراً تسقط عاصمة الخلافة بيد المغول الوثنيين، ويقتل الخليفة والحاشية في يوم مأساوي فظيع؟ نعود الى عهد هذا الخليفة (الناصر لدين الله) نفسه، ونقول: ان جيش الخليفة «الجرّار»، هذا، عجز عن القضاء على تمرّد أحد أتباعه، وهو منكلي وذلك عام ٦١٦هـ/١٢١٥م، مما أضطر الى مراسلة خصمه اللدود جلال الدين بن حسن الصباح، صاحب قلاع الأسماعيلية في بلاد فارس، كما راسل الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين صاحب حلب، والملك العادل ابي بكر بن ايوب «أخ صلاح الدين وخليفته في مصر والشام، وطلب منهم تقديم المساعدة اليه للقضاء على التمرد المذكور، فأجيب طلبه، وجعل مقدم عسكره مظفر الدين سنقر (وجه السبع) صاحب خوزستان، ثم بعث بعد ذلك في إثر مظفر الدين گوگبري صاحب أربيل، ليكون مقدم العساكر جمعياً، فحضر ومعه قوات من الموصل وديار الجزيرة وحلب، إضافة الى قوات بلاده أربيل، واستطاعت هذه الحشود القضاء على منكلي وحركته.[1]

فاذا كان هذا هو وضع جيش الخلافة، فكيف يقدر أن يصل الى الشام ليحارب الصليبيين، ويخيف بجيشه صلاح الدين ويجعله يتنازل عن كل ماإستعاده من الصليبيين باستثناء القدس، علماً ان الخليفة الذي عجز القضاء على تمرد منكلي الخليفة قائد الجيش العرمرم. هو نفس

١- لاحظ أيها القاريء ان قوام هذا التجمع عبارة عن مقاتلين من جيوش أيوبية (إبن صلاح الدين غازي)، أخو صلاح الدين (أبو بكر)، صهر صلاح الدين (گوگبري).

الخليفة الذي يتحدث عنه «صاحب النظرة الجديدة النقدية الى التاريخ!».

ثم عجزت قوات الخليفة هذا، بعد سنتين، اي عام ٦١٨هـ/ ١٢٢٠م من الوقوف بوجه قوة إستطلاعية مغولية، قبل احتلال بغداد بنحو أربعين سنة. فاحتاط الخليفة، لكن ليس بجيشه، بل بمراسلة صاحب أربيل، فأعد له هذا قوة بعشرة الآف مقاتل، سارت نحو الداقوق (مركز تجمع الجيوش) ثم وصلت قوات الموصل، أما قوات الخليفة فلم يتجاوز تعدادها ثمانمائة مقاتل يقودهم القائد التركي (قشتمر). وقرر گوگبري الانسحاب من هذا التجمع إحتجاجاً على ضآلة قوة بغداد، وأعلن: «طلبت من الخليفة أن يزودني بعشرة الأف مقاتل «اي بقدر القوة التي جلبها معه گوگبري» فوافق على ذلك، وسرت نحو دقوقا، إلا أنني فوجئت بقلة ماأرسله الخليفة من جند. إذ لم يحضر عندي غير عدد لم يزد عن ثمانمائة طواشي « مماليك، أو خدام خصيان» فآثرتُ الانسحاب ومارأيت المخاطرة بأرواح المسلمين». أما المغول فانهم قرروا إيقاف عملياّتهم الاستطلاعية، لما سمعوا خبر إجتماع القوات الاسلامية في دقوقا بقيادة گوگبري، وخشوا عاقبة الهزيمة.

وإذا كان هذا وضع الخلافة وجيشها يومئذ، فكيف كان وضع بغداد وحاضرة الخلافة، هنا نكتفي باشارة من ابن جبير (المعاصر لصلاح الدين وللخليفة الناصر). ومعروف ان ابن جبير الرحالة الشهير- قام برحلته بدءً من الاندلس، وجاب خلالها بلدان المشرق، وزار بغداد، ووصفها بحاضرة الخلافة العباسية، لكنه يردف ويقول «قد ذهب اكثر رسمها... وصارت كالطل الدارس، والأثر الطامس، أو تمثال الخيال الشاخص»[1] اي ان بغداد لم تعد تلك الحاضرة العظيمة، ام الدنيا، بل صارت بقايا مدينة... وتحولت الى أطلال وآثار. هكذا وصفها هذا المغربي الاندلسي، قبل أن تطأها أقدام المغول الغزاة الآجلاف القادمين من جوف الصحراء البعيدة. هؤلاء الأجلاف الذين قاومتهم القوات

١- رحلة ابن جبير. ص١٧٥.

الإسلامية كلُّها، عدا قوات الخليفة هذا، فلم تقاوم المغول ولم تحصل معهم مجابهة بإستثناء المقاومة التي نظّمها الأهالي في الجانب الغربي من بغداد «جانب الكرخ»[1]. ناهيك عن توجيه تهمة إستدعاء المغول لحكم بغداد الى هذا الخليفة، تلك التهمة التي يصفها مؤرخ العصر إبن الأثير بـ(الطامة الكبرى) والذنب الذي يصغر أمامه كلُّ ذنبٍ عظيم(!)[2]

قد يسألني القاريء: وما علاقة هذا الكلام بمقال «حسن الأمين» وإقتراءاته، أجيب: ان بغداد يومئذ لم تعد تلك العاصمة البهية، عاصمة الرشيد والمأمون، المدينة التي إزدانت بالقصور والجوامع والبساتين، وازدهرت الحياة الاقتصادية. وتقدّمتْ فيها العلوم والآداب والفنون، ناهيك عن إمتلاكها لجيش قوي، وقادة شجعان، استطاعوا ان يقمعوا ثورة شاملة هزت أركان الخلافة لمدة خمس عشرة سنة هي «ثورة الزنج» المعروفة، كما استطاع أن يواصل هجماته في بلاد الروم (الأناضول) ويصل الى عمورية في عهد الخليفة الشجاع المعتصم ابن الرشيد. لم تعد بغداد بهية آمنة قوية، بل انها فقدت نضارتها ومكانتها كثيراً، حتى بات سقوطها بيد المغول امراً غير مستغرب لمن يعرف أوضاعها، وتقلص نفوذ الدولة، فقد ضعف إقتصادها الى حد بعيد بعد أن اندثرت مشاريع الري المعروفة مثل مشروع الاسحاقي والنهروان والدجيل، مما حدا بباحث مختص ان يقول: ان الخراب الذي عم بغداد ومشاريعها وطرقها كانت بسبب ضعف وإنهيار الدولة العباسية، وان مافعله المغول هو أنهم اطلقوا رصاصة الرحمة على جثة تحتضر، في مدينة لم يعد فيها سوى احد عشر جامع- كما أحصاها ابن جبير.

١- أنظر كتاب د. جعفر حسين خصباك: العراق في عهد المغول الإيلخانيين.
٢- إبن الأثير: الكامل في التاريخ. حوادث عام ٦٢٢هـ (الجزء ٤٣٨/١٢).

فدولة كهذه ليس بوسعها أن تدفع جيشاً لاسعاف صلاح الدين ولانقول أن تجهز جيشاً لمحاربة الصليبيين (ويمنعه صلاح الدين!)

فدعك ايها القارىء عن أكاذيب هذا الكاتب (الأمين)، وإلا فعلى أساتيذ التاريخ من المسلمين والغربيين أن يعيدوا النظر فيما كتبوه إستناداً على مصادر عصر صلاح الدين بمختلف اللغات، ويتخلوا عما عرفوه، ويبدأوا بقراءة مايصدره هذا الكاتب من فتاوي، لكي نصل الى نتيجة هي أن صلاح الدين كان خائناً للاسلام، وعميلاً للصليبيين، وقف ضد (أكبر) قوة إسلامية جاءت من بغداد لتحرير فلسطين والشام!

لا داعي للرد على بقية إساءات هذا الكاتب الذي لم يقل كلمة حق واحدة، وإن قالها فهي كلمة حق أراد بها باطل، كما قال الامام علي بن أبي طالب «ع».

وتبقى سيرة صلاح الدين ناصعة كالبلور... فهي (السيرة الأبهى)[1].

*** سؤالنا هذه المرة فيه اطالة لتعلقه بفكرة القومية: هل صحيح ان صلاح الدين لم يعتنق الفكر القومي بمفهوم عصره، ولم يتحمس له؟ إذ ليس بالامكان القول بان الفكر القومي قد ولد مع الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩، فقد كانت الدولتان الاموية والعباسية عربيتين، وبذلتا الكثير لتطوير اللغة العربية، وخلق تراث قومي عربي، وينبغي ألاّ ننسى بأن الاسلام والنبي محمد (ص) كان همه الاول توحيد قبائل الجزيرة العربية، وإنشاء أسس أمة عربية موحدة. والدولتان الصفوية والقاجارية كانتا فارسيتين، كما كانت الدولة العثمانية تركية أساساً، ومن جانب آخر أطلق الشاعر الكردي (احمدي خاني) في ملحمة (مم وزين) الدعوة الى الوحدة القومية الكردية قبل إندلاع الثورة الفرنسية بعد أن استوعب الدروس من الامويين والعباسيين والصفويين والعثمانيين الذين بنوا دعائم القوميات العربية**

١- «السيرة الأبهى» كتاب صدر للمؤلف باللغة الكردية في بغداد عام ١٩٩٣ تحت اسم (ژيننامەی گەشترین) عن دار الثقافة والنشر الكردية ترجمة عبد الرزاق بيمار.

والفارسية والتركية فماذا كان صلاح الدين من بين هؤلاء؟

لقد أجبت على هذا السؤال- المطول فعلاً- ضمن سؤال سابق، واكمل لأقول:

ان الفكر القومي، أو بالأحرى، المشاعر القومية لصيق بالانسان منذ أن ظهر القوميات. ولايمكنه أن يتخلى عنه، فمسقط رأسه، ولسانه، والوطن الذي يعيش فيه، والتاريخ باعتباره ذاكرة الجماعة، وليس مجرد أحداث مرت عليها السنون. كل هذه الانتماءات تعطى للانسان خاصيته في تكوين شخصيته، وتضفي عليه صفات تميزه عن الأخرين. وليس ثم من تخلى عن- إن لم أقل لم يعتز بـ-تكوينه ولسانه وذاكرته وميله الى من ينتمي إليهم وهذه مسألة طبيعية في حياة الانسان، ولاسيما أثناء الازمات الخطيرة والحروب، لأن الانسان يشعر خلالها بضرورة الاحتماء بالآخرين، والتضامن والتوحد معهم في المصير، والأمثلة على ذلك كثيرة.

لكن الميل الى العنصر شيء وتأسيس الدولة شيء آخر، ولاسيما الدولة التي تدعي الاسلام. فالدولة الاموية ذات التوجه العرقي المعروف، ناهيك عن معاداة آل بيت الرسول، أعلنت أنها دولة إسلامية، إلا أنها مارست سياسة عنصرية مقيتة تجاه العناصر الأخرى التي دخلت الاسلام بسبل شتى، وبذلك خالفت تعاليم الاسلام، أو مبادىء الدين، التي تؤكد في آيات صريحة لاتقبل اللبس «انا خلقناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا، إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم» ولم يقل إن أكرمكم عند الله اكثركم عروبة، أو أقربكم إليها. فالتقوى أو الايمان هو مقياس التقرب الى الله تعالى. ولاحاجة بنا لنؤكد على عالمية أو أممية هذا الدين، وعدم حصر أتباعه بقوم معين. ولهذا كانت دولة بني أمية (التي كانت دولة لبني أمية) دولة ممقوتة، ليس من لدن الأقوام غير العربية التي دخلت الاسلام فحسب، بل من لدن فقهاء الاسلام كذلك، ومن قبل الفرق والأحزاب التي عارضت وقوّضت أركان هذه الدولة التي لم تدم الا نحو تسعين سنة، مثل الخوارج والشيعة والمعتزلة «القدرية».

اما الدولة العباسية- فهي على عكس دولة بني أمية، لم تكن دولة عربية بالمفهوم الرسمي «العرقي»، بل كانت دولة قامت تحت شعار «الرضا عن آل البيت» أي آل بيت الرسول من العلويين والعباسيين. فكانت دعائمها تستند على الاسلام – نظرياً- وإرضاء الأقوام الأخرى التي إنضوت تحت راية الدين، ولاسيما الفرس الذين كان لهم القدح المعلى في تأسيس الدولة العباسية، حتى أنهم احتكروا وظيفة الوزير (ولم يكن هناك غير وزير واحد في الدولة) طيلة حكم العباسيين، الذي ناهز خمسة قرون. إضافة الى دور الفرس البارز، ومعهم بقية الاقوام، بينهم الكرد، في خدمة الثقافة الاسلامية، من تفسير القرآن، وجمع الأحاديث «الصحاح الست» ووضع قواعد اللغة العربية، ومساهماتهم الاساسية في العلوم البحتة والفلسفة، وكان ابرز شعراء ومؤرخي وجغرافيي الحضارة الاسلامية من (الموالي) حتى صار ابن خلدون يقول «ان حملة العلم في الاسلام اكثرهم العجم» ثم يفصل في كلامه ويعلن «وليس في العرب علم، لا في العلوم الشرعية، ولا في العلوم العقلية، إلا في القليل النادر»[1]، ويفسر ذلك تفسيره الخاص، لسنا هنا بصدد شرح ذلك.

ثم يضرب أمثلة على مايقول. ولو كانت الدولة العباسية دولة عنصرية، أو قومية لما اضطلع غير العرب من المسلمين بهذا الدور الخطير في ادارة الدولة وفي بنيتها الفوقية «العلمية والثقافية... الخ. إلا أن هذا لايعني أن الدولة العباسية تخلت عن قوميتها- حسب مفهوم ذلك العصر، بل ان الخلفاء استمروا ينظرون الى الاقوام الأخرى- مهما علت مكانتهم- نظرة إستعلاء تقربهم من النظرة العنصرية، رغم أن أبناء الكثير من الخلفاء كانوا من أمهات غير عربيات.

فمما يرويه إبن خلدون أن الخليفة هارون الرشيد لما إعتزم على هدم إيوان كسرى[1]، بعث الى يحيى بن خالد البرمكي، وهو في سجنه،

١- مقدمة ابن خلدون . ط بيروت. ص ص: ١٠٤٦-١٠٤٨.

وكان شريكه في حكم الدولة قبل التنكيل بالبرامكة في الحادثة المشهور، وإستشاره في أمر هدم الديوان بسبب ميلان ظهر فيه. فقال له يحيى: يا أمير المؤمنين لاتفعل واتركه مائلاً، يستدل به على عظم ملك آبائك الذين سلبوا الملك من أهل هذا الإيوان.

فاتهمه الخليفة الرشيد بالانحياز الى بني قومه، وقال: أخذته النخوة للعجم. والله لأصرعنّه. وشرع في هدمه، وجمع الايدي لهذا الغرض. «ثم ادركه العجز كله، وخاف الفضيحة، فبعث – الى يحيى الحبيس يستشيره ثانية في أمر التوقف عن الهدم.

فقال: يا أمير المؤمنين إستمر في الهدم، لئلاّ يقال: عجز أمير المؤمنين وملك العرب عن هدم مصنع من مصانع العجم. إلا أن الرشيد قررّ التوقف عن الهدم.[2]

أوَلا يدل هذا الحوار الشيق بين أمير المؤمنين، وبين سيد البرامكة، بين السجان والسجين، على وجود الانحياز الى أبناء القوم من كلا الطرفين، وهما طرفان مسلمان؟ وكان هذا الانحياز يصل أحياناً الى حد التصفية الجسدية، كما حصل بين الطرفين المذكورين.

ان إنهاء دور البرامكة في حكم الدولة العباسية- وهم بناتها- كان ضمن توجه إحتكار السلطة، وإبعاد العناصر الأخرى المؤثرة، لما صار يتمتع به البرامكة من نفوذ واسع على مختلف الأصعدة. فبات أمراً حتمياً إقصاؤهم عن مراكز القوة التي نافسوا بها الخليفة نفسه، رغم ما حصل من تداعيات في بنية المجتمع وقيادة الدولة إثر إباداتهم. والأمور الخطيرة وتوجهات أحداث التاريخ، لاتحصل بمحض صدفة.

نستدل من هذا ان الاحساس بالنعرة العنصرية (بالشعور القومي في أقل تقدير) لم ينته بالاسلام، والدليل هو ما حصل من صراعات. وبالنسبة لفترة الحروب الصليبية، نقول أن تلك الاحاسيس لم تمح من

١- مقدمة ابن خلدون . ط بيروت. ص ص: ١٠٤٦-١٠٤٨.
٢- المصدر نفسه، ص٦١٦.

صدور المقاتلين وعقولهم، وهم يتوجهون الى ساحة الجهاد، ويستشهدون في قتال الصليبيين.

وقد ذكرنا طرفاً من هذا حينما إنقسم قادة جيش نورالدين محمود في مصر الى جهتين لدى إختيار صلاح الدين وزيراً. واحتدم الجدال مراراً في صفوف مقاتلي صلاح الدين ولاسيما أيام حصار عكا ويافا.

لكن صلاح الدين بصفته قائد الجيش المحارب لم يعتنق الفكر القومي، ولو إعتنقه لما صار في موقعه هذا، ولقاد المقاتلين الكرد فقط، دون بقية القوميات. وحتى هؤلاء المقاتلين الكرد، لو كانوا يعتنقون الفكر القومي، لما اقتنعوا بتحرير أرضٍ ليست أرضهم، ومقاتلة أناس ليسوا أعداءهم، ولكنهم قاتلوا وجاهدوا بصفتهم مسلمين، لابصفتهم القومية. ولاننسى ان الكرد حينما حاربوا الروم البيزنطيين في معركة (ملازكرد) عام ٤٦٣هـ/ ١٠٧١ م، اي قبل مولد صلاح الدين بنحو ستين سنة، وقاتلوا في تحرير الرها (اورفة عام ٥٣٨هـ/ ١١٤٤م)، وكان صلاح الدين طفلاً، فانهم حاربوا بصفتهم كرداً مسلمين، تعرضوا لاعتداء من دولة نصرانية شرقية، ثم صليبية.

لقد التحق الكرد بجيش صلاح الدين لقتال الصليبيين، وليس لتشكيل دولة كردية. فكانت المشاعر الدينية تملأ صدورهم، مع تمسّكهم بقوميتهم وقبيلتهم.

نعم ان النبي محمد «صلعم» كان همه الأول توحيد الجزيرة العربية، وإنشاء اسس دولة أو أمة عربية موحدة- كما ورد في السؤال- ولكن دولة عربية اللسان تهتدي بعقيدة الاسلام «لافرق بين عربي وأعجمي الا بالتقوى» وليس دولة قومية عربية حسب مفهوم هذا العصر. ولكننا إن توغلنا في عمق «عروبة الاسلام» فاننا لن نسيء الى الدين الحنيف إذا قلنا بأن الاحساس بالعروبة لم ينته، بل عمقه بعض المسلمين، لأن ذلك كان من مصلحتهم. فالعقيدة «التنظير» شيء، والواقع العملي «السياسة» شيء آخر.

نورد قولاً اورده صاحب (المقدمة): «ان النبي [صلعم]عربي، فوجب هجر«ترك» ماسوى اللسان العربي(!) من الألسن في جميع ممالكها، وقال عمر بن الخطاب [رض]. ان لسان الأعاجم (خب) اي مكر وخديعة ... فصار اللسان العربي من شعائر الاسلام وطاعة العرب»![1]

ان هذه الأفكار صارت- وحتى في الوقت الراهن- عند بعض الجماعات- من الأمور البديهية، لايعترضون عليها ولايناقشونها، وهذا ما جعل العرب – كقومية- يزدادون عدداً باستمرار، ليس بسبب العوامل الطبيعية/ البايولوجية، بل بسبب تخلي الكثيرين عن لغتهم. رغم أن هذا التخلى قد فات اوانه، وصار المسلم (الأعجمي) ينظر الى المسألة من زاوية تختلف عن زاوية المسلم العربي.

مرة أخرى نقول ان صلاح الدين لم يتخل عن لسانه، فأهل لسانه كانوا عصبته، ولو لا هم لما أستطاع أن ينجز ما أنجزه، وما أنجزه كان لأهل دينه، ولم يكن للعرب، رغم ان الارض التي قاتل لتحريرها كانت ارضاً عربية. ومقاومة الغزاة والمحتلين لم تكن واجب العرب إلا لكونهم مسلمين، وقد قصروا في واجبهم هذا، في حين ادى المسلم الكردي واجبه كما ينبغي، فهل نحاسب صلاح الدين على آدائه لواجبه تجاه أهل دينه بهذه الصورة؟ وهو ما جعل إسمه يسطع في سماء الخالدين؟ في حين لم يسطع نجم كردي (وغير كردي) في هذه السماء إلا بسبب تفانيه في الجهاد. ويجب ألاّ ننظر الى مفاهيم كل العصور من منظور واحد، كما أسلفنا.

وعن بقية السؤال: أرجو ألا أتجاوز مجال إهتماماتي حين أجيب عما يتعلق بالدولة الصفوية والقاجارية والعثمانية. وحسب معرفتي المتواضعة أقول : ان الصفويين كانوا تركاً أقاموا دعائم دولة ايرانية حسب المذهب الامامي، وكان هدفهم الأول ليس خدمة الفرس، وقد خدموهم في المآل الأخير، بل إستهدفوا إقامة دولة اسلامية اكثر من أي شيء آخر.

١- ص: ٦٧٥.

والشيء نفسه ينطبق على الحكم القاجاري من حيث توجهاته الايرانية، رغم انهم كانوا كرداً فخدمة ايران- أرضاً وشعباً- هو الهاجس الذي يوجه سياسة حكام ايران بشكل متعاقب، مهما كانت القومية التي ينتمون اليها، وفي النتيجة تبقى اللغة التي تستعمل في المؤسسات الإدارية والثقافية في هذه البلاد هي اللغة الفارسية. ولهذا لايمكن وصف أو إعتبار الانظمة المتعاقبة انظمة قومية بالمعنى المفهوم حالياً.

اما الدولة العثمانية، فان الثقافة الفارسية كانت تعم البلاط العثماني اكثر من اية لغة، رغم انهم عثمانيون اتراك، ويجب ان نكون منصفين وننفي الصفة القومية (العنصرية) عن هذه الدولة. وما يحصل في نهايات الدول قد لا ينطبق على بداياتها، أو تنسجم مع توجهها وفلسفتها في الحكم، رغم ان الكرد كانوا اول ضحايا السياسة التي وجهت بعض سلاطين آل عثمان، لأسباب ليس مجال ذكرها الآن. ونشير الى ان بوسع من يخوض في مثل هذا الموضوع ان يقول شيئاً، ثم يقول عكس ما قاله، فالتاريخ قد يتحول الى مجموعة رؤى اوتنظيرات أو طروحات متناقضة نعثر عليها في الأصول (الوثائق والمخطوطات) أي المصادر. ومن يكتب وفق رؤية خاصة، أو يحاول أن يؤكد فكرة معينة فبوسعه ان يفعل هذا، ويفعل ما هو عكسه. فالتاريخ حمال أوجه- أحياناً- ومن سطر أخبار أحداثه لم يكونوا بعيدين عن الأهواء والمصالح والتوجهات السياسية والفئوية.

لذا علينا ألاّ نتساهل في وصف الانظمة الصفوية والقاجارية والعثمانية وقبلها جميعاً العباسية والفاطمية، أنظمة حكم قومية، بالمعنى العنصري، وهذا يعني ان الخوض في مثل هذه المواضيع امر ليس سهلاً.

اما ملاحظتك عن قصائد شاعر الكرد الكبير أحمدي خاني فانها لاتنفي ماقلناه، بل تؤكده، فالمرء لايمكنه أن يتخلى عن بنى قومه وأحاسيسه في أحلك الأيام. ولاعلاقة للمشاعر هذه بثورة فرنسا

الكبرى، رغم ان تاريخاً جديداً لشعوب اوروبا قد بدأ مع إندلاع هذه الثورة، وبروز شخصية ناپوليون. ولكننا -ككرد- كنا بعيدين عنها ارضاً وزماناً. ولهذا فمازلنا نحبو ونمضي- ولكن ببطء- لتحقيق أهدافنا، ليس بالالتفاف الى الخلف، بل نرنو، ونتوجه الى الأمام.

فثمة شعوب إلتفتت الى ماضيها بغضب لكي تنهض لأنها رأت أن ماضيها يعيق تقدمها، وعليها أن تبدأ دون أن تسمح لهذا الماضي أن يتحول الى جلد أفعى. الى قيد... دون أن يكون للأجداد سطوتهم على حاضر المجتمع.

وأشعار احمدى خاني لدليل على وعيه، وقد استوعب آمال شعبه وطبيعة عصره، بمعاناته، وبفطرته، دون التأثير بحادث الثورة الفرنسية.

ولنا عودة لاستكمال هذا الموضوع في إطار جوابنا على سؤال آخر.

*** كيف كانت أوضاع كردستان الاقتصادية والثقافية والإجتماعية في عهد صلاح الدين؟ الم يكن تخلف الاوضاع في كردستان سبباً لامتناع صلاح الدين عن إقامة دولته على أرضها؟**

بالتأكيد لم تكن تلك الأوضاع بخير. وكما أسلفنا لم يكن هناك كيان كردي واضح في أرجاء كردستان الكبرى، وكان هذا إنعكاساً لتردي العلاقات الاقتصادية، والبنى التحتية، وأثر ذلك على مجمل الأوضاع الاجتماعية والثقافية، ناهيك عن الوضع السياسي.

أما أن يكون تخلف الاوضاع في كردستان سبباً في إمتناع صلاح الدين عن إقامة دولة في أرضها، فيتحتم علينا أن نعود وندقق في أجوبتنا المذكورة لكي نقتنع بأن هذا التخلف له علاقة بعدم وجود كيان كردي. ولكن لاعلاقة له بـ«إمتناع» صلاح الدين عن إقامة دولته. فأسرته هاجرت ارض الأجداد قبل مولده، فنشأ هو وترعرع وتحرك وبادر ونجح وقاد وانتصر ومات على أرض غير كردية، ولم يدر بخلده أن يضحي بالمجد الباهر الذي حققه، وأوصله الى قيادة دولة مترامية الاطراف،

تمتد من برقة (ليبيا) الى اعالي دجلة والفرات، والى بلاد الشام واليمن.

ثم يتخلى عن قيادة هذه الامبراطورية ويعود الى أرض كردستان ليقيم عليها دولته حتى لوكانت الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والثقافية... الخ متقدمة ومؤهلة لإقامة دولة فيها.

إن فرصة إقامة دولة كردستانية كان ينبغي أن يفكر فيها غيره من الطموحين، وربما ساعده صلاح الدين على تحقيق طموحه، إلا أن ظروف العصر، أو روح العصر، كما يسميه هيگل، كانت تتوجه نحو طرد الغزاة من ارض المسلمين.

ومرة أخرى أطالب ان نكف عن لوم صلاح الدين، بل أطالب بلوم من لم يفعل شيئاً، يومئذ أو بعده، نلوم من لم يقم دولة كردستانية، أو يفكر جدياً بتوحيد البلاد، أو يوحد أحد «أقاليم» البلاد، نلوم من لم يفعل شيئاً آخر يرفع من شأن ومن مكانة الكرد، كما فعل صلاح الدين، أو أقل مما فعله صلاح الدين الذي جعل اسم الكرد يعلو في أيامه على هامات الشعوب الاسلامية كافة. فلماذا نلوم من فعل شيئاً سامياً عظيماً، ولا نلوم أو لانتهم من لم يفعل أي شيء، وحين نتهم (من لم يفعل أي شيء) نكون كمن يتهم العدم، لأننا لن نعثر عليه، بل نعثر على أنفسنا، لأننا مازلنا قاصرين، ولم نتحرك كما ينبغي أن نتحرّك.

وحين يعجز المرء عن تحقيق غايته، لاينقد ذاته، بل يلعن الظروف، ويشتم الحظ، وحينما يجد الظلام الدامس يلعنه بدلاً من أن يشعل شمعة ويتحرك، كما يقول المثل الدارج.

على أي حال فاني إعتبرت دائماً- في كل المناسبات- ان لوم صلاح الدين من لدن الشباب الكردستاني ليس دليلاً على عدم- أو قلة - تقديره لهذا القائد المبجّل، بل انه دليل إقراره بعظمته، فما يزال يحاسبه رغم المئات من السنين، لأنه يجد فيه القائد الذي كان بوسعه أن يفعل «كل شيء» والكرد لم يلم أو يحاسب أحداً من قادة تاريخه القومي أو الاسلامي، قدر لومه لهذا القائد- بل هناك من يشتمه- وربما يلعنه- في

السر أو العلن.

ففي لحظات الانكسارات تحاول الشعوب المحبطة أن تبحث عن ماضيها لتبرر ما حصل، أو تربط بين إنكساراتها وبين الحظ/ الصدفة Chance، الذي لم يسعفه!. فحين هزم الأغريق أمام الرومان، أعلنوا أن سبب هزيمتهم هو موت قائدهم التاريخي الاسكندر المقدوني في وقت مبكر. أو أن ما حصل لمصر البطليموسية كان سببه (أنف كليوپاترا) وقيل: ان هذا الانف لوكان طويلاً قليلاً أو قصيراً لـ «تغير وجه التاريخ»... وأدعو شعبي بشبابه أن يرفض نظرية أنف هذه المرأة المصرية الحسناء.

بل علينا أن ننتبه، فربط ماحصل- ويحصل- لنا بصلاح الدين فيه نوع من الانهزامية، الهروب من تحمل المسؤولية. ثم لماذا لانبدأ من أجل حاضرنا ومستقبلنا و(كأن) صلاح الدين غير موجود أصلاً، اذا كان ذلك يصب في مصلحة شعبنا ووطننا، حاضراً ومستقبلاً. أو نعتبره وكأنه لايمت بصلة الى الكرد (جدلاً)، حتى نكف عن لعبة العتاب والحساب. أو أننا لانعرف شيئاً عن وجوده أصلاً ونبدأ... المهم أن نبدأ... ونبدأ بشكل مبرمج مخطط. عندها لن نؤمن بلعبة الحظ أو الصدفة، هذه اللعبة التي أصبحت عائقاً امام الشعوب، ومشجباً مهشماً نعلق عليه أخطاءنا. وحتى آثامنا... ولانصبح - نحن- كالاغريق حين لعنوا بختهم الذي اختطف منهم (اسكندرهم) وهو في ريعان شبابه، علماً أنّ الاغريق صاروا دولة مرة أخرى... اما نحن فمازلنا نلعن.

أن معاتبة قائد وهو في مثواه الأخير، «يرتاح» بعد أن هدّته السنون، بعد أن قاتل على صهوة جواده طيلة عمره الذي لم يطل به عن نصف قرن الا بعض السنين... لهو من مآسينا. مآسي شعب عليه أن ينهض... يجب أن ينهض.

سؤال عام: لماذا كان العلماء والمثقفون الكُرد، وفي أحيان كثيرة العوائل الراقية والأرستقراطية الكُردية تلجأ الى الهجرة من كردستان والإستقرار في عواصم دول الجوار. ففي حالة صلاح الدين نجد أنّ قائداً كصلاح الدين أو (كريم خان زند) أقام حكماً (غير كُردي)؟ فما هي أسباب النزيف الفكري والبشري...الخ. في كردستان في تلك العهود؟

لم تنعم كردستان بعهود الاستقرار في اكثر مراحل تاريخها، ولم يحصل فيها تراكم ثروة يؤدي الى قيام حياة مدنية تأخذ مجراها بشكل مستديم، وهذا لايعود الى طبيعة الكردي، وأساساً لست من معتنقي فكرة تمايز الشعوب والجماعات الإثنية بمواصفات معينة ثابتة، فكل شيء مآله – أو يسير نحو– التغيير.

والكردي– شأنه شأن أية جماعة على وجه الأرض– محكوم عليه في حياته بجملة عوامل، أهمها طبيعة أرضه، وتأثيرها على طبيعة الحياة الاقتصادية والعلاقات بين الجماعات، ولا أقول الطبقات لأن التركيب الاجتماعي لم يصل الى حد الاستقطاب بين أبناء المجتمع، ولحد الآن. وظل الطابع الرعوي، والزراعي البدائي، والصناعي اليدوي، والتجارة على أسس غير متقدمة في أحايين كثيرة، هو السمة التي تحكم مجتمعنا، وإذا حصل تكدس ثروة لدى أفراد، فإن صاحبها يخشى عليها من الضياع، في مجتمع لايشعر فية بالأمان بالقدر الكافي، ولاسيما وأنّ سبل إستثمار هذه الثروة التي جمعها محدودة، إضافة الى أنّها غير مأمونة، غير مضمونة.

ان صاحب الثروة يهمه أن يطمئن الى مصير مايملكه، فيحاول البحث عن مكان يشعر فيه بالأمان، ويضمن له دوام الحصول على المكسب، أو الحفاظ على مايملكه، وحمايته. وحين لايحصل على مرامه في مجتمعه، يبحث عنه في مجتمع آخر. والمجتمع الذي يوفر له الأمان يعتبره وطنه، ولهذا يهاجر الى آفاق جديدة، الى مدن أخرى، مدن كبرى، سواء في بلاده أو في دول الجوار، فيستقر فيها. والكردي في تحركاته ليس

إستثناء، بل هكذا جرت الأمور، ولاينفك– بعد سنين إلاّ ويتثقف بثقافة البلد الجديد، ويتخلق بأخلاق أهله، ويلبس على غرارهم، ويستمريء هذا الوضع، ويواصل السير فيه هو وأبناؤه وما أن تمر السنون إلاّ وينسى الأرض التي أقتلع منها بشكل من الاشكال، ولاسيما إذا كان إقتلاعه، إذا كانت هجرته... بإرادته وبقناعته، أو يرى أن من الصواب أن يستقر في البلد الثاني لسبب من الأسباب، اما أبناؤه، فانهم لايشعرون بإحساس المُقْتَلَع لأنهم قدموا الى هذا البلد صحبة آبائهم، أو أنهم ولدوا وترعرعوا على الارض الجديدة وليست لديهم ذكريات أو شوق للوطن الذي قدموا منه ناهيك عن عدم وجود مصلحة لهم في وطن الآباء والأجداد الذي تحوّل الى شبح أو خيال يتحدث عنه الأب أحياناً. فقد تأقلموا مع الوطن الجديد.

وهجرة العلماء والمثقفين الكرد لاتختلف عن هجرة الباحثين عن أماكن لتأمين ثروتهم وزيادتها، فتطلعاتهم العلمية ومداركهم لاتشبعها بيئتهم فيغادرونها بحثاً عن المزيد من العلم، والاحتكاك مع علماء المدن الكبرى والاطلاع على جهودهم ونتاجاتهم وتجاربهم المختلفة. وإذا كان المكان الآمن هو وطن الأثرياء في كل زمان وكل مكان، فإن أماكن توفر المؤسسات الثقافية والمكتبات هي وطن الباحثين عن الحقيقة من العلماء والادباء والفلاسفة ورجال الفكر، فلا غرابة إن وجدنا علماء ومفكري الكرد يلجأون الى الهجرة، والاستقرار في أرجاء أخرى، ولدينا أمثلة على هجرة علماء آمد وقضاة شهرزور، واستقرار ابن الاثير الجزيري وإخوته وأسرة ابن منعة الاربلي في الموصل، وإبن خلكان الاربلي بين القاهرة ودمشق، وهذا غيض من فيض.

والواقع أن الاستزادة بالعلم لايمكن إعتبارها نزيفاً فكرياً مادام العلم تستفيد منه البشرية كلها، وإذا توفرت في وطن المتعلم أو العالم المؤسسات التي تحقق طموحه فلن يفكر في الهجرة بحثاً عن المعرفة، والخسارة تكون، أو تحصل حين يبيع العالم جهده أو فكره أو اكتشافه

لمن يدفع المزيد. حين يبيع علمه للآخرين رغم توفر المؤسسات وضمان حياته إقتصادياً وأمنياً.

وقد وجدنا كيف تحولت أربيل الى موئل للعلماء، ولاسيّما في عهد سلطانها الملك المعظم مظفرالدين گوگبري، صهر صلاح الدين، حتى أسمى مؤرخها الشهير ابن المستوفي كتابه «نباهة البلد الخامل، بمن ورده من الأماثل، في تاريخ اربل» لكثرة من ورد الى هذه المدينة العريقة المعطاء من العلماء الأماثل، الى مدينة الخمائل، من زوايا العالم الاسلامي كافة، من المشرق حتى بلاد الأندلس، إضافة الى من أنجبتهم هذه المدينة من العلماء.

وفي كل فترات التاريخ هناك هجرة العقول والأدمغة الى البؤر التى تزدهر فيها الحياة وينعم أهلها بالراحة والأمان وتزدهي بالعلوم والثقافة، ألم تصبح نينوى وبابل وطيبة وأثينا وبيزنطة وروما والاسكندرية في التاريخ القديم، وبغداد والبصرة وفاس والقاهرة في التاريخ الاسلامي، مراكز يهرع إليها رجال العلم والفكر من كل حدب وصوب؟

أما في الوقت الراهن فقد تحولت الولايات المتحدة بجامعاتها ومؤسساتها ومراكزها العلمية والثقافية الى مركز إستقطاب علماء العالم، علماء العالم الثالث، بل حتى علماء اوروپا الغربية واليابان وبقية آسيا وروسيا... الخ، حتى أن عدداً كبيراً من الحائزين على جائزة نوبل في العلوم المختلفة حازوا عليها باسم امريكا، في حين أنهم قدموا الى هذه البلاد الغنية من الأماكن المذكورة، نالوها باسم الدولة التي إستقطبتهم وليس باسم البلد الذي غادروه.

وإذا كنت تستمي النقلة الثقافية التي حصلت لعلماء الكرد قبل مئات السنين نزيفاً فكرياً، أفلا ترى ان هذا النزيف قائم في الوقت الراهن على قدم وساق؟ فهل تستطيع أن تعالج الجرح ليندمل وتجعل الدم يتخثر ويكف عن النزف؟ ان أرض الوطن، بحد ذاتها، تتحول الى طارد

للمثقف، تدفعه الى الهجرة لأكثر من سبب، رغم أنه يعزّ على الانسان أن يغادرها، لكن العواطف لوحدها لاتوقف النزف.

وإذا كان صلاح الدين لم يحاول أن يوقف النزف، رغم أن الهجرة لم تكن تعتبر نزيفاً يومئذ، فهل بوسع أحفاد صلاح الدين أن يحولوا دون تدفق النزف؟

نسأل: الم يكن بمقدور صلاح الدين ان يجمع حوله مثقفي عصره من الكرد ليحول دون ذهاب جهودهم لخدمة غير الكرد؟

أجبنا على السؤال ضمن أسئلة سابقة بشكل من الأشكال. ونضيف:

ان تجميع مثقفي اي شعب لايتم بقرار شخص، مهما كان، حتى لو كان شخص صلاح الدين. فمن من قادة العالم نفذ ذلك أو فكر فيه مجرد تفكير في كل تاريخ البشرية، فبوسع قائد منتصر أن يستحوذ على علماء بلد مغلوب على أمره، ويهجرهم الى بلاده تحت طائلة التهديد، أما أن يجمع علماء ومثقفي شعبه، وهم يعملون في أماكن مختلفة، في مدارس ومؤسسات علمية أخرى، في ظرف غير ظرفنا الراهن، فكان أمراً غير ممكن.

أين كان صلاح الدين سيجمع العلماء الكرد، أفي القاهرة أم في دمشق، أم أين؟ الجواب: لا، بل في كردستان. نقول هل يعقل أن يطالب صلاح الدين المثقفين الكرد بمغادرة المدن الاسلامية التي يعملون فيها ليعودوا الى كردستان؟ إنّ هذا لو كان يتم لظن الناس انه بعمله هذا يطرد العلماء الكرد من تلك الديار في الوقت الذي يعمل هو ويجاهد خارج كردستان- ثم أن الكرد لم يكونوا يعملون في بلاد غريبة، بل كانوا في بلدان ومدن إسلامية وتحت نظام دين لايميز- رسمياً- بين الأعراق والأصول، لكنه يميز بين المسلمين وغير المسلمين.

ان المثقفين- عادة يختلفون في الرؤى والمنطلقات، وقد تجمعهم الرؤية الواحدة رغم بعد المسافات اكثر مما يجمعهم الوطن أو العرق الواحد

والمثقفون –عادة– لا تأتلف أو تنسجم أفكارهم، وإلا لما كانت هناك هذه النظريات المختلفة، والفرق والمذاهب والمدارس الفكرية، وإختلاف التلاميذ (طلبة العلم) مع شيوخهم «أساتذتهم» وربما تجاوزوا حدود معارف اساتذتهم، وهذا أمر معروف مفهوم في كل حضارة، وفي كل مذهب.

وأساساً لم تكن تتوفر في كردستان المؤسسات العلمية التي تجمع حولها «الانتلجنسيا» الكردية – بلغة هذا العصر– بحيث تشبع –أي المؤسسات– نهم الباحثين الكرد الى المعارف بالمستوى المطلوب، ودليلنا – كما أجبنا على ذلك في السؤال السابق– هو أن هجرة الأدمغة الى مراكز الاستقطاب الثقافي ظاهرة معروفة حضارية في كل المدنيات. إضافة الى أن الكرد لم يكونوا يعبرون عن ثقافتهم وذواتهم بلغتهم.

إنّ هذا يعني أنه لم تكن ثمة ثقافة كردية يومئذ، بقدر وجود ثقافة إسلامية، يتم التعبير بها باللغة العربية، يساهم فيها الكرد – الى جانب الشعوب الاسلامية الأخرى، ولأن لم تكن هناك حدود بين المسلمين تحول دون إرتحالهم لغرض الحصول على بغيتهم من العلوم. والكرد كانوا مواطني تلك الارض الواسعة، مهما تعددت تسميات أقاليمها، من بلاد فرغانة... اواسط آسيا... بلاد فارس، آذربيجان... بلاد الجبال– كردستان– العراق... بلاد الشام... مصر... الجزيرة العربية... افريقيا... المغرب... الأندلس... الخ. وعدم وجود ثقافة كردية، لايعني ان كان هناك ثقافة لبقية الأقوام. فلم تكن هناك ثقافة فارسية، عربية، تركية، بربرية، أو مصرية، عراقية، أندلسية...الخ، لكي تكون هناك ثقافة كردية.

كان المثقفون المسلمون كافة تجمعهم اللغة العربية، بسبب العقيدة الاسلامية، بل ان العربية صارت لغة الكتاب غير المسلمين أيضاً ممن عاشوا في الدولة الاسلامية، فكانوا يدونون نتاجهم بالعربية الى جانب لغتهم الخاصة بهم، ربما نستثني الفرس المسلمين، حيث استأنفوا الكتابة بها وبحروف عربية كما هي حالهم الآن، إضافة الى دورهم

المتميز وربما الفريد في خدمة العلوم الاسلامية «النقلية والعقلية – كما كانت تسمى» حيث كان لهم القدح المعلى في خدمة اللغة العربية.

ثم على الكرد ألاّ ينظروا إلى هذه المسألة من منظور العصر الراهن، فلم يكن المثقف المسلم يشعر بالحرج حين يعبر عن ثقافته باللغة العربية بل كان يتباهى بمعرفته اللغة العربية، ويمكننا ان نورد أمثلة على مساهمات شخصيات كردية في إنماء وإغناء الثقافة الاسلامية باللغة العربية.

ولهذا فان السؤال الموجه يفتقر الى إدراك طبيعة ما كان يجري في مفاصل الثقافة الاسلامية يومئذ، ليس في عصر صلاح الدين فحسب، بل منذ إنتشار الاسلام وثقافته بلغة القرآن، ويكفي أن نقول أن بغداد وقبلها البصرة والكوفة، كانت تعج بعلماء من بلاد فارس وغيرها في مجالات ثقافة العصر، سواء في التفسير والحديث وعلم الكلام واللغة والشعر والنقد، أو في الفلسفة والعلوم الصرف «الطب وعلم الفلك» والرياضيات والفيزياء والكيمياء...الخ.

ولم يتم ذلك بقرار، أو بأمر وزير فارسي، أوَلَم يقل إبن خلدون «ان حملة العلم في الاسلام اكثرهم من العجم، وليس في العرب حملة علم، لا في العلوم الشرعية ولا في العلوم العقلية، الا في القليل النادر»[1] ويعلل إبن خلدون ذلك ليس بسبب عرقي، أو تفاوت في الذكاء بين الأقوام، بل يقول:

> «السبب في ذلك أن الملة في أولها لم يكن فيها علم ولا صناعة، لمقتضى أحوال السذاجة والبداوة...»

ولسنا بصدد الاطالة في موضوع كهذا. ولكن نريد أن نبعد صفة القومية عن الثقافة الاسلامية «العربية»، وان التعبير بلغة القرآن لايعني أن العلم غدا عربياً لأن العربية كانت الوعاء الذي ضم أو حوى العناصر والشعوب التي إنضوت تحت راية الاسلام، ودور من أطلق عليهم العرب

١- المقدمة. ص١٠٤٨.

المسلمون إسم «الموالي» اي المسلم غير العربي ليس بمقدور أحد إنكاره...

لهذا نقول أن تجميع الكرد في بقعة من وطنهم- يومئذ- لم يكن أمراً ممكناً قط، بل أن تجميع (بني ايوب) أنفسهم في بقعة معينة سواء في وطنهم الأصلي- كردستان- أو في الأوطان التي صاروا حكامها، لم يكن بالأمر الممكن.

ولهذا فجهود العلماء الكرد لم تكن سدى، أو تذهب لخدمة غير الكرد، بل صُبّت في خدمتهم بصفتهم مسلمين، ولولا تلك النخبة من العلماء الكرد، لما كان بوسعنا الآن أن نقول: أن أمة الكرد أنجبت علماء ومفكرين، نضرب بهم الأمثلة على مابذله أجدادنا في خدمة التراث الفكري الإسلامي.

هل من حق الكُرد أن يفاخروا بكون صلاح الدين منهم؟ في بعض الأحيان يوجه الشباب الكردي إنتقادات الى صلاح الدين. فهل أن إنتقاداتهم تلك تستند الى أساس حقيقي أم هي مجرد تعبير عن مشاعر عاطفية وأحكام سطحية؟ لقد خدم صلاح الدين العرب (من خلال خدمته الإسلام) في حياته وقوته فماذا يمكن أن يجني الكرد من كونه كرديّ الأصل في طفولته وبعد موته؟

جوابي: هو أن الجرح الذي نكابده عميق، وهذا الجرح هو ما يوجهنا الى مثل هذا السؤال. ولهذا فهو سؤال مشروع، ولكنه خطير، خطيرٌ لأنه- مرة أخرى- نطالب الراقدين تحت التراب أن يحلّوا معضلاتنا، بعد أن عجزنا- لحد الآن- من حلها.

ولندخل الجواب: نعم من حق الكرد أن يفاخروا الأمم بصلاح الدين، كونه منهم، بل علينا أن نتمسك به الآن ومستقبلاً، اكثر من اي وقت، غير مبالين ببعض محاولات «أخذ» صلاح الدين منا بإعتباره غير كردي، وسنتحدث في سؤال تال عن هذا الموضوع، مرة أخرى.

نفاخر به، لأن الكرد قد دخلوا، أو اعتنقوا عقيدة الاسلام، في البداية

عن مضض، وبعد مقاومة عنيفة معروفة للفاتحين، تشهد بذلك صفحات كتب تاريخ الفتوح، إلا أنهم حينما دخلوا الاسلام، صاروا يتمسكون بمبادئه بكل صدق وتفانٍ، وجاهدوا في سبيله، وحمايته ونشر عقيدتهم بإستماتة تثير الدهشة، ولم يعد الكردي يشعر أن هذا الدين قد فرض عليه بالقوة، أو أنه إعتنق العقيدة بعد مقاومة. وقد أثبتوا ذلك بجدارة وعلى مختلف الصعد، وكان صلاح الدين وأسرته ذروة هذا التعبير، على الرغم من أن الكرد لم يقصروا مطلقاً في أداء واجبهم تجاه عقيدتهم، قبل بروز شخصية صلاح الدين، وتدافعوا بالمناكب دفاعاً عن دينهم دون أن يفكروا بمكافأة يحصلون عليها من أحد، والايمان بعقيدة لايتطلب إنتظار مكافأة، سوى الثواب.

ان عظمة هذا الرجل جعلت الامم الاسلامية تتبارى في (أخذ) صلاح الدين منّا ولعل من المفيد أن نذكر أنّ صلاح الدين غدا البارومتر- أستعمل لفظ البارومتر مرة أخرى- الذي نقيس به نوع علاقتنا أو درجتها، مع السلطات العراقية منذ عشرات السنين. فصلاح الدين «يصبح كردياً!» ورمزاً للاخوة العربية الكردية وجمع الشعبين الشقيقين تحت راية واحدة لتحرير القدس حينما تتحسن العلاقات بين الكرد وبين الحكومة المركزية، ثم «يتحول» الى بطل عربي حين تتوتر هذه العلاقات لسبب من الأسباب، كوسيلة أو أسلوب من أساليب إغاظة الكرد، أو إقصاء دورهم في التاريخ، وسلاح إعلامي مفتعل لإنكار كردية هذا القائد، وهذا ينسحب على إعلام دول اسلامية أخرى مجاورة لكردستان، كل على طريقته، ومرماه فصار الدفاع عن كردية الرجل جزءً من معاركنا الفكرية والسياسية، بل صرنا ننظر الى المثقف غير الكردي من زاوية نظرته الى صلاح الدين، إقراره أو إنكاره لكرديته، وإحترامه لمنبته، وكأن كردية صلاح الدين صارت تقررها الأمزجة، وليس مصادر التاريخ.

إذن أيمكن أن نتسامح مع كردي لايتباهى، لايتفاخر بهذا القائد،

ولايدافع عن إنتمائه.

أما توجيه الانتقادات إليه فهو ليس إلا هرباً من وضعنا الراهن، حين نرمي بثقل مكابداتنا على عاتقه، وقد تحدثنا عن هذا بما فيه الكفاية، ودعوا الرجل يرقد في مثواه، والواقع ان هذه «الانتقادات» لاتستند الى أساس حقيقي. ولا تعدو أن تكون سوى تعبير عن مشاعر عاطفية، أو أحكاماً سطحية، ليس إلا.

وصلاح الدين – كما ورد في السؤال– لم يخدم العرب من خلال الاسلام، بل أنه– بكل تأكيد– خدم الكرد من خلال الاسلام، كما أنه خدم الاسلام بالكرد، بأسرته الكبيرة، وبشعبه الباسل.

وقد جنى الكرد من هذه الخدمة، وقطف أثمار الجهاد، وإذا كان الكرد لم يجنِ يصلاح الدين، فبمن جنى، وما معنى أن يجني الكرد إذن؟

وأفهم من خاتمة سؤالك، أن صلاح الدين كان كردياً في مولده وفي مماته ولكنه لم يكن هكذا في عمله لأنه لم يفعل شيئاً ولم يحقق للكرد أمنية.

وأظن أن ما قلته يكفي، بل أرجو من القارىء أن يعذرني، او لايعاتبني على تكرار بعض الاجابات والايضاحات على لسان كبير قومنا. ودعونا نجني من سمعة الرجل، سمعة الفارس المغوار، الذي لايشق له غبار، نجني منه... ولا نتجنى عليه.

في أحيان كثيرة نجد مسؤلين سياسيين أو مثقفين عرب يحاولون تعريب صلاح الدين ووصفه بالبطل العربيّ. ما هو الدافع وراء ذلك؟ يبدو أن صلاح الدين بات عقدة للكُرد والعرب على حدٍّ سواء فالكُرد ينتقدونه والعرب يريدون تعريبه. فما هو أصل هذه العقدة. مع العلم أنه تردد كثيراً بأنّ صلاح الدين كان مقاتلاً كردياً وبطلاً عربياً كما قيل أنّ صلاح الدين لمّا إنتصر أضحى ذلك البطل العربيّ ولو أنّه هُزم لقيل عنه أنه كان قاطع طريق كردياً خائناً؟

هذه جملة تشويهات وتهويشات السياسة «بوجهها السلبي»، وألاعيبها

وأحابيلها، حين تبغي إخضاع التاريخ الى أغراض آنية ضيقة، لمصلحة هذا الطرف أو ذاك، وقد تحدثنا عن البارومتر «صلاح الدين» في الجواب على السؤال السابق.

وهذا الأمر، وهذا الخلط، وهذا الاخضاع لايحصل إلاّ في عالم متخلف، كعالمنا الثالث، وإلاّ فإنّ الدول المتحضرة يخجل مثقفوها، إذا حاولوا ذلك، أو كتبوا التاريخ بنوازع «وطنية»، وتتحول الوطنية في كتابة التاريخ إلى تهمة يحاول الباحث أن ينفيها، يبعدها عن نفسه، بأية صورة، ويرى المثقف أنّ من العيب أن يكذب ويلوي عنق التاريخ، بل إنّ مفهوم «الوطنية» لديه هو أن ينصف التاريخ ولايفتري عليه، ان يقول الحقيقة ولو أغضب «الوطنيين». فوطنية المؤرخ نابعة من إستنطاقه المصادر بشكل متوازن ومنهجي ومقنع، وطنية تجعله ينبّه العقول ويوجه أصبع الاتهام بشجاعة الى مسببي هزيمة وطنه وإنكساره، في وقت يشيد بقادة النصر والمقاومة.

اما «المثقف» العربي، وغير العربي، الذي يحاول ان يجرد صلاح‌الدين من قوميته، فهو ليس مثقفاً، انه يعمل في مجال الاعلام والدعاية، وضمن هدف سياسي محدد، دون أن يكون مقتنعاً في قرارة نفسه بما يقوله ويكتبه، لكنه يستفيد من عمله ومن «موقفه» اللاموقف. فهو ينفذ أوامر، ويكتب في ما مطلوب منه، ويرخص قلمه ويجعله قلماً تحت الطلب، ويرضي من يدفع له اكثر. قل عن هذا الشخص أي شيء، أطلق عليه أية صفة تشاء، ولكن لاتطلق عليه صفة (مثقف).

انى لا أهدف أن أتهم رجال الاعلام والسياسة كلهم، فبين هؤلاء من يعمل بوازع من ضمير وقناعة ويرفض أن يجعل جهده رخيصاً، بل يحترم قلمه ولايخضع للابتزاز، ولكسب آنيّ زائل.

فلا أريد أن اساوي بين إتجاهين موجودين في هذا الصدد، إتجاه ينظر الى الأمر بحسن نية، أو أنه يجهل حقيقة ماحصل رغم ان جهله لايبرر أن يقول ما يشاء. فبين الباحثين من كتب عن صلاح الدين وكأنه

قائد عربي، دون أن يقصد الاساءه إليه أو القدح فيه والحطّ من قيمة الكرد، وهذا ينطبق على كتاب أو باحثين يعيشون في بلدان عربية بعيدة عن كردستان، ممن لايظن ان «تعريب» صلاح الدين إنكار لوجود ودور الكرد، «ويظن» ان كل محرر وكل فاتح أو مجاهد عمل على أرض العرب عربيٌّ بالضرورة، وهذا أشبه بمنطلقات أو طروحات أحزاب ورؤى «قومية» تساوي بين مواطني «الوطن العربي» مساواة في الواجبات دون الحقوق!. ولايأخذون بنظر الاعتبار وجود قوميات أخرى. ويبقى هذا الاتجاه يتسم بتوفر «حسن النية» لديه الى حدٍّ ما، وقسط من السذاجة وغياب المعرفة المطلوبة.

اما الاتجاه الآخر ففيه من يحاول جهده الشك في أصل هذا القائد، منطلقاً من مشاعر عنصرية ضيقة ترى أنّ من «غير اللائق» أن يكون مَن قاد حركة التحرير، تحرير أرض المقدسات «العربية» غير عربي ينتمى الى منبت آخر، الى أناس آخرين. يجد غضاضة في أن لايكون محرره منتمياً الى بني قومه، فيحاول قلب الروايات التاريخية رأساً على عقب للعثور على ضالته، وقد إطمأن الى وجود مايريحه ويسعده، فقد ورد في كتاب ابن العديم الحلبي «تاريخ حلب» أن إسماعيل ابن طغتكين (إبن أخ صلاح الدين) الذي حكم بلاد اليمن بعد وفاة والده إدعى الخلافة، واعلن إنتماءه الى بني أمية(!) وأنه الخليفة المهدي!

يقول ابن خلكان الكردي الاربلي أنه سمع من أستاذه، مؤرخ سيرة صلاح الدين، القاضي ابن شداد: ان هذا القائد إستنكر إدعاء ابن أخيه، وقال: ليس لهذا النسب العربي أصل أصلاً، كما إستنكر عمه الآخر الملك العادل سيف الدين ابو بكر بن أيوب. وقد وصف المؤرخون اسماعيل بضعف عقله، فكان أبوه يخافه على نفسه. وقال عنه أبو شامة انه كان سفاكاً للدم، ولسيرته هذه كان مصيره القتل بيد جماعة من الكرد باليمن[1].

١- ابن واصل: مفرج الكروب، ١٣٦/٣. الحنبلي: شفاء القلوب. ص٢٧٢.

ومعروف أن سبب إدعاء اسماعيل هذا النسب يعود الى أنه حاول إقناع أهل اليمن المعروفين بنزوعهم القبلي المحافظ، وعدم قبولهم حكم من لاينتمي الى أسرة عربية يمانية معروفة، وقد اكد مؤرخ مصر الكبير المقريزي ان المصالح الشخصية كان لها دور في إدعاء ابن طغتكين نسبه الملفق[1].

ان الكتاب «القوميين» استندوا على مزاعم هذا المخبول في جعل الايوبيين (عرباً). ومن الصعب عليهم ان يقرأوا التاريخ بإمعان، كما ان من غير اليسير أن يُقرّوا بكردية قائدٍ حرَّرَ الأرض العربية، واستعاد بيت المقدس.

لقد كان لهذه الموجة رواجها في مصر أيام صعود حركة القومية العربية ايام الزعيم الراحل جمال عبدالناصر، فتجندت مجموعة كبيرة من الكتاب والمؤرخين وكتاب المسرحيات ومخرجي الأفلام ومنظمي الأناشيد الى ركوب الموجة، ولكن سرعان ما إنقلبوا على أنفسهم بعد رحيل عبدالناصر، وصار منهم من يقول: لقد عاد الينا وعينا[2]، بينهم كتاب ومؤرخون كبار.

فهذا عبدالعزيز سيد الأهل أحد مَنْ ألّف خلال هذه الموجة، أي في ذروة صعود العاطفة القومية، ولاسيّما ايام الوحدة بين مصر وسورية (١٩٥٨-١٩٦١) وقيام الجمهورية العربية المتحدة، كما أخرج الفنان المعروف يوسف شاهين فلمه «الناصر صلاح الدين» جعل فيه صلاح الدين «خادماً للعرب» وليس للاسلام، والتوجه القومي الملفق واضح في الفلم الذي جنّد له اشهر كتاب السيناريو، وأبرز نجوم السينما والمسرح، إضافة الى احتوائه على مغالطات تاريخية واضحة.

اما سيد الأهل فقد طرح في كتابه «أيام صلاح الدين» مجموعة من أفكار متعثرة، فيقول على سبيل المثال: إذا قيل ان صلاح الدين كردي

١- المواعظ والاعتبار. ط. القاهرة ١٣٢٤، ٣٧٨/٣.
٢- كتاب للكاتب المسرحي الكبير توفيق الحكيم باسم «عودة الوعي».

المولد، قيل أنه عربي النجدة والهمة والانتصار(!)... وكان صلاح الدين عربي اللسان والأدب والعلم والدين، عربي الصحبة والدار... وكان عربياً «محضاً» حتى في طعامه وشرابه(!)، وليس في صلاح الدين شيء إلا وهو عربي أصيل(!)

وكأن سيد الأهل يحاول أن يدفع عن هذا القائد المبجل «تهمة الانتساب الى الكرد» إرضاءً للقراء، لكيلا ينزعجوا. فصلاح الدين استطاع أن «يبرأ» من الداء، «وتحرر» من أصله الكردي(!) وصار يعرف أصول تناول الطعام والشراب على الطريقة العربية، وليس على الطريقة الكردية .

لم يفكر هذا الكاتب في وقع كلامه هذا على القاريء الكردي، وأساله: ما الذي يتصوره أن يكون الكردي؟ ماهي معلوماته عن لسانهم وأدبهم وملبسهم وعقيدتهم وطعامهم...؟ أظنه لايعرف عنّا شيئاً البتة.

كما يبدو لي أنه لم يقرأ شيئاً عمّا كتبه أخوتنا المصريون قديماً وحديثاً- عن نجابة وشهامة وصدق وبسالة الكردي، ولا عن لغتهم وأدبهم وطعامهم وملبسهم.

وقد بلغت المغالطة بسيد الأهل أن قال: ان العدوان الصليبي لولاه لما سطع نجم صلاح الدين «ومن غير نزاع فإنّ شخصية صلاح الدين ظهرت في الوسط العربي ونمت، ولولا العرب الذين أحاطوا به(!) ولولا الارض العربية (يقصد تلك المحتلة التي حررها صلاح الدين ببني قومه)، ماظهر اسم صلاح الدين، ولا علا نجمه. نقول: إذن كان على صلاح الدين أن يشكر الاحتلال الصليبي، فلولاه لما ظهرت مقدرته في القيادة والقتال والتحرير، فهو- إذن مدين للصليبيين(!)

نعم ان الحروب الصليبية شحذت همم كل الرجال في أرجاء العالم الاسلامي، بغض النظر عن إنتماءاتهم القومية، إلا أن هذا العالم لم ينجب سوى صلاح الدين واحد. وهذا الواحد لم يكن مديناً لطرف، لكنه مدين لدينه الذي، تمسك به، كبقية بني قومه، وعلّمه معنى الجهاد

وأضاف شجاعة ابن الجبل وقوة شكيمته الى الحماسة الدينية ومحبة أهل الاسلام، أخوته.

وإذا كنا قد فهمنا سبب عقدة بعض الكرد تجاه صلاح الدين، في صفحات سابقة، فإنّ عقدة بعض العرب تجاهه سببها نظرتهم الضيقة وإعتبارهم صلاح الدين عربياً، مادامه «خدم العرب» فتم تعريبه وانتهت المشكلة والحمد لله!... وتخلى عن كرديته والحمد لله(!) وتعلم المشي والجلوس والأكل والشرب والتكلم على الطريقة العربية... وانه شفي من كرديته وانتهت المشكلة والحمد لله(!). كل هذه الحيل والمغالطة لم تنل من هذا الرجل، بل هو إقرار بعظمته.

اما أنه كان مقاتلاً كردياً وبطلاً عربياً(!) فنسأل: هل أن هؤلاء المصابين بقصر النظر يحسنون التعبير؟ صلاح الدين كوّنته حقيقتان، بالدرجة الاولى:

كرديته أولاً، وإسلامه ثانياً، وحين إندمجت الحقيقتان في ظروف الاحتلال، كان عليه أن يعبّر عن إسلامه دون الالتفات الى تقوّلات الآخرين، وقصر نظرهم.

وفي هذا العصر إنبثقت الحركات والجمعيات القومية في مايسمى بالمشرق العربي وخاصة في بلاد الشام منذ بدايات القرن العشرين، كما برزت شخصيات تدعو الى الانفصال عن الدولة العثمانية وتؤكد على أفكار ذات مضامين قومية، وكان للأخوة المسيحيين دورهم الواضح في هذا الصدد، وقاد بعضهم تلك الحركات والتوجهات. ولاشك ان لمسيحيي بلاد الشام ولاسيما لبنان وسورية أيادي بيضاء في خدمة الثقافة العربية ونشر الفكر المعاصر، لكن بقي البعض منساقاً الى تيار الوقوف بوجه الفكر الاسلامي، ولاسيما الذي يقدح من مكانة أهل البلاد من النصارى، فكان أن ظهر رد الفعل لدى التيار الذي ينأى بنفسه عن التوجه «العروبي الاسلامي» ويبرز الجانب العروبي لوحده، وعمم هذا التيار فكره ومشاعره – على فترة الحروب الصليبية. وبتأثير من – وكَردٍّ

فعلٍ على- السياسة اليومية التي إتبعتها السلطات الحاكمة ضدهم، دون مبررٍ أحياناً أو دون وجه حق، حاولوا تخفيف وطأة الصراع الاسلامي- الصليبي «المسيحي» أي تجريده عن طابع الصراع الديني الذي كان سمة الصراعات في العصور الوسطى، وجعله صراعاً بين العرب واوروبا، اي دون إيلاء الباحث الديني أهمية في ذلك الصراع الدموي الذي ترك جرحاً لم يندمل. علماً ان قادة حركة التصدي للصليبيين ومقاتليها من أولها الى نهايتها لم يكن بينهم قائد عربي واحد، وكان الصراع الدموي في بدايته بين السلاجقة وبين الفرنجة ثم ظهر عمادالدين زنكي وولده نورالدين محمود، وبعده شيركو، ثم صلاح الدين واخوته واولادهما، وأخيراً ظهرت دولة المماليك التركية في مصر والشام التي أنهت الوجود الصليبي عام ١٢٩١.

لانريد الإطالة في مثل هذه المواضيع، ونحن نبحث عن عقدة القوميين العرب تجاه قادة حركة الجهاد ضد الوجود الصليبي. نكتفي بذكر هذا المثال عن هذا التيار القومي، ظهر في عهد عبدالناصر في مصر. ففي عام ١٩٥٩ (أيام وحدة مصر وسورية الّف الباحث الشهير الدكتور حسين مؤنس، صاحب التصانيف الغزيرة كتاباً بعنوان «نورالدين محمود» أهداه الى «المجاهدين في سبيل بناء الوطن العربي الحرّ الموحد». وحاول الباحث ربط الحاضر بالماضي، ويدين موقف بعض المغاربة سابقاً ولاحقاً «إذ كانت علاقة الجمهورية العربية المتحدة قد توترت مع بعض دول، أو قادة دول، شمال افريقيا يومذاك» ويقول: «فيذهب بعض رؤسائهم الى معاداة القومية العربية ورائدها جمال عبدالناصر- صلاح الدين عصرنا[١].

ويرى الدكتور مؤنس: أن نورالدين محمود كان قد أستعرب لساناً وقلباً، وقد مرت عملية استعراب السلاجقة والتركمان والاكراد(!) في دور طويل نستطيع أن نتبيّنه إذا نحن تتبعنا تطور الأسماء، فقد كانت الاجيال الاولى منهم تحمل أسماء تركية أو كردية أو فارسية خالصة...

١- كتابه المذكور. ص١٩٤.

وفي الجيل الثاني أضيفت الى الأسماء الأعجمية ألقاب تشريف، ثم صاروا يسمَّوْن بأسماء عربية إسلامية مضافة الى الأسماء التركية كقولهم عمادالدين زنكي، معين الدين أونر، ظهيرالدين ظغتكين[١].

ثم جاء جيل عربي الأسماء، فإختفت الأسماء التركية «الاعجمية» كما نرى في نورالدين محمود وسيف الدين غازي. وبعد نورالدين سارت العملية إلى أبعد من ذلك، فالتمسوا لأنفسهم انساباً عربية لقطع الصلة بينهم وبين ماضيهم. فقالوا- مثلاً- في نسب صلاح الدين انه ابن ايوب بن شادي بن مروان بن علي بن عنترة... الى ان يصل الى عدنان[٢] (وهو نسب ملفق ولاشك). ثم يردف ليقول: والمعروف ان آباء صلاح الدين من الاكراد الروادية، إحدى بطون الهذبانية من بلدة دوين.

إذن فمن يتسمى - أو يسمي أولاده - بأسماء لرموز دينية جليلة، فانه سيقطع الصلة بينه وبني ماضيه. فالتسمية بهذه الرموز- في نظر القوميين العرب... طريق الى التعريب وقطع لصلة غير العربي بماضيه، فالاسلام يفضي الى العروبة، الى التعريب.

أسمَعَنا في مرحلة دراسة الماجستير أحدُ أساتذتنا المعروفُ عنه نزعته المغرقة في شوڤينيته البغيضة والمذهبية المقيتة ان الأعاجم الذين يتسمَّون، أو يسمّون أولادهم بأسماء غير عربية لن يدخلوا الجنة، فاعترضت على تقوله وغرابة كلامه، وأن الاسلام معروف بسماحته وأن باب الجنة مفتوح لكل مؤمن «إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم». استغرب من كلامي، فسألني: هل أنت أعجمي. قلت: نعم، وقد أسميت ولدي باسم غير عربي. قال: لا فالاكراد مستثنون، أي أنهم سيدخلون الجنة. فشكرته(!).

كم هو صعب الوقوف بوجه تيار باطش لاثبات وجودك القومي، فأنت لاتملك وسائل إعلام، ومحظور عليك أن تقول بعض ماتبغي أن تعلنه.

١- ص٤٠٧.
٢- ص٤٠٨.

ان الشوڤينية صفة مكروهة لاتليق بانسانٍ متحضر، مع ضرورة التمييز بين من يحمل هذه الصفة من باب الاستعلاء على أبناء القوميات الأخرى «الأقل عدداً وعدة» وبين من يحملها من باب الدفاع عن الذات والبحث عن هوية، أو كَردٍّ فعلٍ تجاه شوڤينية القوي التي تبغي نفي وجودك، وإقصاءك عن حق الوجود.

(وجوابي على المقطع الأخير من سؤالك: قيل ان صلاح الدين لما إنتصر أضحى ذلك البطل العربي، ولو كان يهزم لقيل عنه انه كان قاطع طريق، خائناً كردياً).

نعم انهم حين ينسبون صلاح الدين الى العرب، لايقللون –حسب ظنّهم– من قيمته، بل أنهم يرفعون من شأنه، لأنهم لايريدون أن ينتمي محرر أرضهم الى قوم آخر، لكنهم بذلك يشوهون التاريخ، ويحوّلون الاسلام الى دين خاص بالعرب. وقد تحدثنا عن هذا كثيراً، وإلاّ كيف تسنى لهؤلاء العنصريين أن يمنعوا من يتسمى بأسماء غير عربية من دخول الجنة(!). ومن يتسمى بإسم اسلامي (عربياً). وكل من يعيش في بلد عربي (عربياً) حتى لو كان ينتمي الى قوم آخر، وكل من يتعلم ويؤلف بالعربية (عربياً)(!)

في حين أنهم لايطبقون هذه المقاييس على حالات معكوسة. ومن يقرأ طروحات زكي الأرسوزي وساطع الحصري وناجي معروف على سبيل المثال، يلاحظ بوضوح هذه الافكار البعيدة عن روح العصر، عن المفكر المتحضر، ناهيك عن بعدها عن سماحة الاسلام.

ويبدو أنك قد صغت ملاحظتك مما تضمنه بيت شعر وضعه الشاعر الفلسطيني الراحل معين بسيسو حين قال – على ما اتذكر–:

صلاح الدين صار عربياً حين إنتصر فلو كان هزم لصار جاسوساً كردياً

هل ترون ان صلاح الدين "لو" عاد إلى الحياة لندم على عدم كفاحه في سبيل قوميته الكردية؟ ام أنه سيصرّ على ما حققه، وبرفض انتقادات الشباب الكرد له؟

جوابي: هل من المعقول أن يندم على هذا المجد المؤثل الرفيع الذي حققه، وعلى هذه المناقب الفريدة التي كسبها، والانتصارات المؤزّرة التي أحرزها؟

أن يندم على عدم كفاحه في سبيل قوميته الكردية؟

لا لن يندم، بل يضع الآخرين أمام مسؤولياتهم، ويقول لهم: لقد أثبتُّ امام العالم كله غرباً وشرقاً، امام الانگليز والالمان والفرنسيين، امام الطليان والبيزنطيين والصقليين، أمام العرب والعجم والبربر، ان الكرد (لو) أرادوا لحققوا المعجزات. أسست دولة في أخطر بقاع العالم الاسلامي، بعيداً عن كردستان موطننا، خدمت أهل ديني في حطين وفتح بيت المقدس، وتحرير ساحل الشام، وحققوا أنتم البقية، حققوا لشعبنا المبتلى المجزأ، بعضاً مما حققتُه، ليس من المنطقي أن يعمل كلنا في خط أو إتجاه واحد، بل نعمل في إتجاهات وخطوط متباينة، ولكننا نلتقي في الهدف، وما قمتُ به لخدمة الاسلام وتحرير أرضه كان يصب في هدف تحرير أرض كردستان التي ابتليت بعدوان بيزنطي قبل أية بقعة اخرى من ارض الاسلام، وقبل تسنّمي لدوري ومسؤوليتي في مصر باكثر من قرن، أقصد في معركة (ملازكرد) عام ٤٦٣هـ/١٠٧١م التي جرت على أديم كردستان، ثم احتلال وتحرير الرها «أورفه» في الحملة الصليبية الاولى. أنا لم أجاهد إلا لأبعد الطامعين عن أرض أجدادي، التي تمتد من اقصى بلاد الروم وأذربيجان وارمينيا، وأعالي دجلة والفرات الى جبال كردستان، پشگوه وحمرين. فلتتّحد سواعدكم ياأحفادي، ولاتقفوا عند توجيه النقد جزافاً، قبل أن تنجزوا عملاً يحقق بعض أهداف قوافل الشهداء الذين خضبوا بدمائهم جبال بلادنا الشماء، ووقعوا صرعى الاضطهاد العرقي والديني، بأيدي جلاديهم

ومحتلي أرضهم.

ويضيف القائد: إني لست نادماً، بل أنا فخور بما أنجزته، وكنت أتمنى لو أنجزتُ اكثر. ولكني – في الوقت نفسه– حزين، لأنّ شباب كردستان يرمون تبعة ما يحصل لنا –الآن– على عاتقي، وأنا لم أفعل إلا لأرفع إسم وطني كردستان بين أبناء القارات الثلاث، وما فيها من أوطان، لكني ها أنا أرى وطني وطناً مجزّأ وحيداً، وأبناءه على غير وفاق تام، وأرزاقهم وجهودهم تبدد... وشبابه يهاجر، لكني متفائل في النتيجة، لأن عهد إنكار الحقوق، زمن إقصاء الآخرين سينتهي، إن قررتم أن تتحدوا... فاتحدوا.

لماذا لم تظهر دولة كردية في التاريخ الاسلامي؟ رغم كل إسهامات الكرد في رفع شأن الاسلام. هل سبب ذلك يعود الى نقص عند الكرد. وعجز عن إستغلال الاسلام وإقامة دولة كردية تحت غطاء الاسلام. كما فعل غير الكرد؟

إقامة دولة على مر العصور ليس بالأمر السهل، بل تتطلب توفر مجموعة عوامل خاصة بالبيئة الجغرافية من موقع ومناخ وطبيعة الأرض، وتوفر الموارد الطبيعية «الخام والمحروقات» ومصادر المياه من أمطار ومسطحات مائية، وما في باطن الارض من كنوز ومياه. ثم ما يتأسس من وشائج بين هذه العوامل بمرور الزمن، تدفع القاطن على تلك الأرض الى بذل الجهد والعمل من أجل الغد، بتحسين الثمار وتكديس فائض الانتاج، وتبادل الفائض والمنافع مع أقاليم أخرى، أو الاستفادة منها بتصنيعها وإضفاء قيمة مضافة على منتجه.

إذن تقوم الدولة حين تتساوق إرادة الانسان وتجاربه وإعمال عقله، مع عطاء الطبيعة العمياء، عندئذ تسير الأمور حثيثاً في تناغم يجعل الانسان يدرك بعد فترة أنه غيّر ظروف معيشته، باستثماره للظروف التي هيأتها له الطبيعة.

اني لا أبغي الحديث عن تفاصيل ما يحدث، أو أتطرق ولو باختصار الى النظريات التي قيلت في هذا الشأن، ونحن الكرد أحوج ما نكون، اكثر من أي وقت، اكثر من أية قراءة أخرى، الى دراسة هذه النظريات بتمعن لكي نستوعب ما قاله فلاسفة التاريخ منذ أربعة وعشرين قرناً، بدءً من ثوكيديديس الى إبن خلدون، الى توينبي، مروراً بكوكبة من المفكرين الذين عالجوا هذا الموضوع، أقصد موضوع نشوء الحضارات، ومن ثم تأسيس الدول التي هي أهم مظاهر إقامة حضارة ما في كل العهود أينما كانت. نقرأ أفكارهم بدقة، على تباين ما طرحوه، كل حسب تكوينه وتفكيره، ونحاول أن نفهم واقعنا، وندرس ظروفنا على ضوء تلك النظريات.

ومن الناحية التاريخية، تشكلت في التاريخ الاسلامي إمارات كردية، بلغ بعضها الى مستوى الدولة ولكن لم تكتب لها الديمومة، أو تعقبها إمارة أخرى تسير على منوال الامارة السابقة وتستفيد من خبرتها وتضيف إليها ما يفيد اللاحق من الأجيال. بل دخلت هذه الإمارات في صراع مع إمارات أخرى أو دولة طامعة، أودت بوجودها وذهبت جهودها أدراج الرياح.

قد يكون للبيئة الطبيعة دورها فيما حصل، من حيث غنى أو فقر الطبيعة، بمافيها الاعتماد على مياه الأمطار، ولكننا نرد على ذلك: ان كردستان غنية بالثروة المائية، اكثر من نصف بلاد العالم، لوجود منابع وروافد دجلة والفرات، والزابين الأعلى والأسفل، والعظيم وسيروان وديالى في أراضيها وكذلك وجود بحيرات عذبة فيها، وباطن أرض كردستان غني بالمياه، إضافة الى الينابيع والعيون التي تتدفق بالماء الزلال.

إذن أين يكمن الداء، هل يكمن في المناخ، وكردستان تقع ضمن المنطقة المدارية المعتدلة والباردة، وأرضها خلو من الصحراء، كأرض سويسرا وبقية اواسط اوروبا؟

هل يكمن في تقطع أوصالها بسبب وعورة الجبال؟ كذلك أنفي هذا العامل لوجود مناطق في العالم، فيها جبال اكثر وعورة من جبالها، سواء في أوروبا التي تغطي سلاسل جبال الألب أراضي مجموعة من الدول، أو في آسيا حيث تقطع سلاسل جبال همالايا مجموعة من الدول إعتباراً من أفغانستان مروراً بپاكستان وكشمير والهند ونيپال وبوتان وبنگلاديش...الخ.

حتى الصحراء لم تكن عائقاً أمام قيام دول مثل منگوليا ودول الصحراء الافريقية المنقطعة على نفسها مثل چاد والنيجر، إضافة الى أن الصحراء تغطي اكثر أراضي بقية دول شمال أفريقيا من موريتانيا حتى مصر التى إستطاع إنسانها تعديل سلوك مجرى النيل وإقامة واحدة من أرقى حضارات العالم القديم. ثم أين هو عامل «التحدي والاستجابة» حسب النظرية المقنعة الى حد بعيد، التي أطلقها مؤرخ بريطانيا الكبير ارنولد توينبي «ت ١٩٧٥»؟ التي يقول فيها ان الشدائد والملمات والبيئة الصعبة هي التي تستثير الهمم وتدفع الانسان إلى خلق الحضارة، وليس عامل الدعة والترف والوفرة، أي أنّ الحضارات قامت حيث أراد الأنسان أن تقوم.

ان البحث عن أسباب الخلل في بقاء الوطن مشتتاً ممزقاً وعدم قيام كيان كردي واسع بات أمراً ملحاً اكثر من أي وقتٍ مضى. قد ينبري من يقول: إنّ ثمة شعوباً أخرى مازالت مجزأة. نجيب: إنّ الفرق شاسع، فهذه الشعوب مجزأة في دول (او إلى دول) تنضوي جميعها تحت ثقافة أو لغة واحدة، كما هي حال الدول العربية أو دول امريكا الجنوبية والوسطى والمكسيك التي استوطنها الاسپان ونشأت فيها عشرات دول لاتينية، تتحدث شعوبها باللغة الاسپانية (عدا البرازيل بالپرتغالية) وتدين بالمسيحية الكاثوليكية، أو وجود اكثر من دولة تركية أو فارسية أو صينية... ولا داعي لذكر المزيد.

نعم قامت على أديم كردستان إمارات، ودام حكم بعضها فترة

معقولة، لكن- وكما قلنا- لم تعقبها تجربة تواصل العمل من أجل ديمومة الكيان، أو تأسيس حضارة خاصة بالكرد.

إن المرء حين يفكر في مسألة الكيان الكردي تعتريه دهشة وإستغراب، ويرى نفسه أمام تساؤلات تفضي الى تساؤلات أخرى. ولكن حين ينظر إلى حاضره - حسب مقولة كروچة- سرعان مايتبدد إستغرابه ودهشته فالداء والدواء يكمن فينا وليس في طبيعة وكرم وطننا، ثم يعود الى تساؤله، لأن مايضطرم في جوانحه من هموم الاغتراب يتواصل، ويشعر باليتم، وهو يتلمس طريقه، ويدرك انه لايقل شأناً وذكاءً وغنى عن شعوب رفعت رايتها في ساحة الاستقلال منذ عشرات السنين... وكان لها كيان منذ مئات وآلاف السنين... فيستمر التساؤل.

نعم لاينقطع الانسان عن تساؤله مدى الزمن، والتساؤل ينقطع حين تنقطع الحياة، وربما كان تساؤله في مجتمعات متقدمة أقوى وأعمق من تساؤل الانسان في مجتمعات الاستبداد، وعند الشعوب المبتلاة بالتخلف... والاحتلال. ولكن تساؤلنا يختلف عن تساؤل الشعوب كلها... فهو تساؤل من طراز خاص... تساؤل لايمسّ نظام الحكم، أو طرد الغزاة فحسب، بل تساؤل يمس وجوده... يمس مصيره... يمس محاولات إقصائه عن مواقع التأثير... فيستمر التساؤل.

نسأل: هل كان ثم شعراء عرب هاجموا صلاح الدين. وانتقصوا من كونه كردياً. كما فعلوا مع أبي مسلم الخراساني. الرجاء إيراد ما جاء في هذا المجال.

من الأمور المعروفة في فترة قيادة صلاح الدين وبعدها تحامل المؤرخ المعاصر الكبير ابن الأثير على صلاح الدين تحاملاً صادراً من مؤرخ له موقف منحاز الى أسياده أتابكة الموصل، الذين جعلوه لاينقطع عن تناول أطيب ما خلقه الله، في وقت كان اهل هذه المدينة يتناولون لحوم السنانير والكلاب ولحوم الموتى. فأتابكة الموصل أنعموا عليه كثيراً، بينها

ضيعة في أطراف الموصل، وكان عليه ان يدفع ثمن ماقبضه، فتحامل على صلاح الدين، وبدأ يشوه جوانب من تاريخ الرجل، نظراً لصعود نجمه وأفول نجم حكام الموصل، مما دفعهم الى مساومة الصليبيين، فكان هذا سبباً لاعلان صلاح الدين الحرب على هؤلاء الحكام وحصار مدينتهم مما حدا بإبن الأثير القابع خلف أسوار الموصل الى شنّ حرب إعلامية على صلاح الدين، وتشويه جوانب من تاريخه، وتعمد قلب الروايات التي يقتبسها من مؤرخين آخرين، ولاسيما عماد الدين الكاتب الأصفهاني، وحذف الروايات التي فيها الذكر الطيب لصلاح الدين، وكما يقول المستشرق الكبير «هـ.ا.ر. جب» في كتابه «صلاح الدين: دراسات في التاريخ الاسلامي».

إذن كان هذا المؤرخ هو الوحيد من كبار العصر من تحامل وهاجم صلاح الدين، وحاول الانتقاص من مكانته، وأهمية إنتصاراته لكنه حينما وصل في كتابه الشهير «الكامل في التاريخ» الى سنة ٥٨٩ هـ، التي توفي فيها صلاح الدين، نجده يتحدث عن مناقبه «على طريقة: «اذكروا محاسن موتاكم»، فيقول: كان كريماً، حليماً، حسن الأخلاق، متواضعاً، صبوراً على ما يكره، كثير التغافل عن ذنوب أصحابه[1]... ويضيف: يكفي دليلاً على كرمه ونظافة يده انه لما مات لم يخلف في خزائنه غير دينار واحد وأربعين درهماً... رغم انه إستولى على ثروات وخزائن الدولة الفاطمية ودولة نورالدين محمود. وكان يعيب الملوك المتكبّرين، ويحضر عنده الفقراء والصوفية والفقهاء، ويعمل لهم السماع «المنقبة النبوية» ولم يلبس شيئاً مما ينكره الشرع، وكان عنده علم ومعرفة، وسمع الحديث النبوي وأسمعه. وبالجملة كان نادراً في عصره، كثير المحاسن والافعال الجميلة، عظيم الجهاد في الكفار، وفتوحه تدل على ذلك، وخلف سبعة عشر ولداً ذكر[2].

١- الكامل: ١٢/ ٩٦-٩٧.
٢- م.ن.ص.

أما إن كان ثم شعراء قد هاجموه، أو إنتقصوا من قيمته، فاظن ان ذلك يحصل، نظراً لمجهوده العظيم، وقضائه على الدويلات المتواطئة مع الصليبيين، أو مع أبناء الجماعة الاسماعيلية الذين كانت الخصومة بينهما مستمرة. إضافة الى شعراء البلاط الأتابكي في الموصل، والعباسي في بغداد، وربما الفاطمي في مصر أو في اليمن، إذ لايعقل أن يظهر قائد كردي في زمن رديء... ويقضي على المصالح الأنانية للحكام والخيانة والتواطؤ مع العدو، وعلى سياسة الصمت، ولا يذمّه الشعراء والكتاب التابعون لتلك القوى المتخاذلة، يقول عنه «جب»: لقد اوقع صلاح الدين أعداءه الداخليين والخارجيين في حيرة من أمره، لأنهم توقعوا أن يجدوا الحوافز التي تحركه على غرار حوافزهم، وتوسموا فيه أن يمارس اللعبة السياسية على طريقتهم هم[1].

لقد كان صلاح الدين طاهراً نقي السريرة والسيرة، فلم يكن يتوقع أبداً أن يفهم المكر عند الآخرين، وقلما فهمه، وكان هذا نقطة ضعفه التي إستغلها الآخرون... فاصطدموا بصخرة إخلاصه الراسخ العزم على خدمة هدفه ومثله العليا، وهو إخلاص لم يتهيأ لأحد أن يزعزعه من مكانه.

يقول جب: كان المبدأ الأول الذي سار عليه صلاح الدين في التعامل مع الأمراء، سواء كانوا من الأصدقاء ام الأعداء، هو الصدق في قوله والوفاء المطلق به. حتى مع الصليبيين أعدائه، فكانت الهدنة عنده تعني الهدنة وليس شيئاً آخر، ولايحوي سجله حالةً نقضَ فيها العهد معهم، أما الذين نقضوا العهود معه فلم يصفح عنهم... لقد كان وفاؤه مثاراً للدهشة[2].

أوَليست هذه صفات الكرد الحقيقية، وبسببها دفعوا الثمن؟ وتعرّض الرجل بسبب سياسته الراسخة الى محاولات لإغتياله ثلاث مرات، ومَن

١- جب: ١٩٢.
٢- م.ن.ص.

يتعرض للإغتيال يمكن أن يتعرّض للتشهير أو الطعن في سياسته ولو بإطلاق كذبة... أو بتعييره لإصابته بعاهة جسدية أو إصابة في جبهته أو ساقه مثلاً.

وهل يمكن لقائد من طراز صلاح الدين، يحقق تلك الأمجاد، وتخفق له القلوب محبة وثناءً ولايتعرض لهجوم من حكام زمانه من الأنداد والخصوم.

لقد إستطاع هذا القائد البارع، ببسالته وفطنته، أن ينتشل الإسلام خلال فترة وجيزة وحاسمة من وهدة الإنحطاط الأخلاقي والسياسي، بما أوتي من طيبة محضة وثبات في الخلق. وحين دافع بعناد عن مثل أخلاقية عليا، وجسّد هذه المثل في حياته الخاصة وأعماله، أوجد حوله حافزاً للإتحاد[1].

وعنه كتب العالم الشهير معاصره «عبداللطيف البغدادي» في كتابه «الإفادة والإعتبار» وقد رآه أثناء زيارته لبيت المقدس قبيل وفاة القائد، يقول: رأيت ملكاً عظيماً يملأ العين روعة والقلوب محبة... سهلاً محبباً، وأصحابه يتشبّهون به، يتسابقون الى المعروف، كما قال تعالى «وَنَزَعْنا ما في صُدورِهِمْ مِنْ غِلٍّ»[2]، وأول ليلة حضرته، وجدتُ مجلسه حافلاً بأهل العلم يتذاكرون في أصناف العلوم، وهو يحسن الإجتماع والمشاركة، وكان وقتذاك مهتماً في بناء سور القدس وحفر خندقه، يتولى ذلك بنفسه وينقل الأحجار على عاتقه ويتأسّى به جميع الناس، الفقهاء والأغنياء والأقواء والضعفاء[3]. ولمامات صلاح الدين وجد الناسُ عليه شبيهاً بما يجدونه على الأنبياء، ومارأيتُ ملكاً حزن الناس بموته سواه[4]»، ولما حان دفنه إرتفعت الأصوات عند مشاهدة نعشه، وعظم

١- جب: ١٥.
٢- سورة الحجر: الآية ٤٧.
٣- الإعتبار، ص١٠.
٤- م.ن. ص١١.

الضجيج حتى أنّ العاقل يتخيّل أنّ الدنيا كلها تصيح صوتاً واحداً. وغشي (أغمي) الناس من البكاء والعويل ما شغلهم عن الصلاة، فما يوجد قلب إلاّ حزيناً... ولا عين إلاّ باكية[1].

نسأل: بنى صلاح الدين العديد من القباب والقلاع والحصون في بلاد الشام ومصر. لازالت تحمل إسمه. لماذا لم يبنِ أيّاً منها على أرض كردستان. ألم يكن الجنود الكرد بمثابة سند وذخر لجيش صلاح الدين في معاركه؟

السؤال في واقعه يقع في شقّيْن، سأجيب على الشق الثاني قبل الأول، وأقول: بلى، كان المقاتلون الكرد سنده في مجابهاته ومعاركه كلها، وهم الذين حرّروا المدن، وحَمَوا دولته وشخصه. وكانت القضية المركزية هي مقاومة الإحتلال وتحرير أرض فلسطين وبقية بلاد الشام وحماية مصر من عدوان محتمل يشنّ عليها من الشمال «من بيزنطة وصقلية والمدن الإيطالية» أو من الشرق حيث المحميّات الصليبية.

وهذه الأعمال العسكرية تقتضي بناء الحصون والقلاع، وتسوير المدن وتقوية دفاعاتها، وهذه مسألة معروفة. لكنّ صلاح الدين لم يكن بحاجة الى بناء هذه الإستحكامات لأنّ معاركه لم تكن دفاعية، أو تهدف حماية مدن المسلمين، بل كانت معارك تحرير وهجوم على الحصون والقلاع التي شيّدها المحتلون لكي يحتموا خلفها من هجمات المسلمين التي بدأت منذ عهد الإفاقة الإسلامية الذي بدأ بشكل منظّم منذ بروز شخصية القائد الشهير عمادالدين زنكي. بإستثناء ما شيّده صلاح الدين من مبانٍ وإستحكامات في القاهرة، والتي سُمّيت بقلعة صلاح الدين، إضافة الى تسويره لهذه المدينة خشية تعرّضها لعدوان صليبي، رغم أنّها لم تتعرض لمثل هذا العدوان طيلة عهد صلاح الدين. وكذلك بناء إستحكامات جديدة في القدس وتجديد أسوارها القديمة أكثر من مرة، بعد تحريرها إثر إنتصار حطين المدوّي.

١- إبن شداد: سيرة صلاح الدين.

ولذلك فإنّ القلاع والحصون التي شُيّدت في بلاد الشام من أقصاها (أنطاكية) الى أدناها (الكرك) مروراً بقلاع طرطوس والمرقب وحصن الأكراد وبرزية وبيت الأحزان وصور وعكا... إلخ. لم يشيّدها صلاح الدين، بل شيّدها الصليبيون، أو غيره من قادة الإسلام، وكلامنا لايخصّ دراسة الآثار والمباني العسكرية بقدر ما هو جواب على سؤال.

إذن ما الذي يدفع صلاح الدين الى بناء إستحكامات عسكرية في كردستان؟ أوَلم يكن هناك مَن يبنيها قبله بحيث نطلب من صلاح الدين بناءها؟ هل كان عليه أن يبنيها لكي يخلّد بها إسمه؟ بالطبع لا، فصلاح الدين ليس من هواة ذكر الإسم وتخليده، إذن أيبنيها لمجرّد البناء، كديكور؟ بالطبع لا، ولنذكر أنّ أيّ جزء من كردستان لم يتعرض الى إحتلال صليبي إلاّ في الحملة الصليبية الأولى، وقبلها كانت هناك –كما ذكرنا– معركة مَلازكرد.

ولاتزال آثار القلاع والحصون القديمة باقية في كردستان، بينها قلعة أربيل وقلعة كركوك وأسوار آمَد (دياربكر) أحد أشهر أسوار العالم.

أخيراً، تجول صلاح الدين في المناطق الممتدة حتى مصر. وزار الموصل التي كانت بمثابة الحدود الجنوبية الغربية لكردستان فلماذا لم يفكر في العودة الى كردستان وزيارة أهله وأقاربه. لماذا لم يقم بزيارة أربيل التي كانت تسكنها أخته وصهره السلطان مظفرالدين گوگبُري؟

نُجيب: أنّ صلاح الدين لم يكن حاكماً عادياً يدير دولة في وضع طبيعي كغيره من الحكام والملوك. كانت دولته دولة عسكرية في حالة تأهب دائم لخوض غمار الحرب في أية لحظة. وهو قائد هذه الدولة، يمتطي صهوة جواده حتى حين يمرض، بل أنّه كان يمرض حين ينزل من هذه الصهوة، وظلّ يمتطيها مدة قاربت ربع القرن. قال عنه معاصره الرحالة الأندلسي الشهير إبن جبير: لايأوي صلاح الدين لراحة، ولايخلد الى دعة، ولايزال سرجه مجلسه[1]. ولهذا لم يزُر بلداً، أيَّ بلدٍ كان، حتى

١- إبن جبير: رحلته، ص٢٠٧.

أنّه لم يحج... رغم أنه تهيّأ لأداء فريضته قبل أن تعجله المنية.

لم تسمح له فرص أو عمليات الجهاد لكي يتجوّل. أما زيارته لكردستان بسبب وجود أهله فيها، فصلاح الدين لم يرضع أو يترعرع على أرض كردستان، ولا تزوّج فيها، وكان جده شادي قد غادر دوين وتوفي بتكريت، وغادر والده وعمّه شيركو هذه البلدة ليلة مولده. والإنسان يحنّ الى ذكريات طفولته والأماكن التي ترعرع فيها، وذكرياته لم تتكوّن في كردستان بل تكوّنت في ديار الشام. ولهذا فما أن إستقرّ حكمه في مصر وإستتبّت له الأمور، إلاّ وغادرها متوجهاً الى ديار الشام، فنزل في دمشق في المنزل الذي كان يسكنه والده فيها، وبدأ من هناك يتوجّه نحو الشمال، لكن ليس في زيارة أو جولة عادية، بل للَملَمة أشلاء دولة نورالدين محمود إثر وفاته، وتوحيد أجزائها وضمّها الى دولته في مصر.

أما زيارة أربيل، فلم تحصل، وكان حاكمها هو زين الدين يوسف إبن زين الدين علي كوچك الذي توفي خلال حصار عكا الطويل عام ٥٨٦هـ/١١٩٠م إثر إصابته بحمّى، وحلّ محله في حكم أربيل أخوه السلطان مظفرالدين گوگبُري الذي طلب من صلاح الدين أن يتخلى (أي گوگبُري) عن ممتلكاته في الرها (أورفه) وحرّان. وكان گوگبُري قد تزوّج ربيعة خاتون أخت صلاح الدين في وقتٍ سابق وأنجب منها بنتيه اللتين زوّجهما من ولدي ملك الموصل الأتابك نورالدين أرسلان شاه، أحدهما كان عمادالدين زنكي (الثالث) الذي حكم منطقة شهرزور. فما الذي يدفعه لزيارة أربيل، وكان الجهاد هو شغله الشاغل؟

وبذلك نؤكد أنّ هذا القائد لم يقم بجولات أو زيارات إلاّ تحت وطأة حالة طارئة تتطلب القيام بتحرّك ما بنفسه، ليُنهي الحالة لمصلحة مجهوده العسكري، ولم يزرْ بلدةً قطّ زيارة عادية أو لغرض الإستجمام، حتى توفي ودفن في دمشق عام ٥٨٩هـ/ ١١٩٣م.

وقبيل وفاته أفضى الى صاحبه وكاتب سيرته بهاءالدين إبن شداد بما

كان يتمنّاه قائلاً: متى ما يسّر الله تعالى فتح الساحل (ساحل الشام) قسّمتُ البلاد وأوصيتُ وودّعتُ وركبتُ هذا البحر (الأبيض المتوسط) الى جزائره(!) وأتبعُهُم (أي الفرنجة/ الصليبيين) حتى لا أُبقي على وجه الأرض من يكفر بالله أو أموت[1]. ولم يقُل تمنّيتُ لو أغادر دمشق بإتجاه الشمال وأعبر الفرات لأصل الى مرابع أجدادي في كردستان في زيارة لمواطن قبيلتنا الهذبانية الروادية، أو أزور أختي ربيعة خاتون التي تعيش في أربيل بمعية زوجها الملك المعظم مظفرالدين گوگبُري. لم يقل مثل هذا الكلام، لأنّه لم تكن له ذكريات في كردستان، ولأنّ أقاربه غادروا دوين الى الأبد وإستقروا في بلاد الشام ومصر والجزيرة وغيرها.

١- سيرة صلاح الدين: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية.

المصادر والمراجع

أولاً: المصادر

إبن الأثير الجزري، علي بن محمد بن عبدالكريم (ت ٦٣٠هـ/ ١٢٣٣م)

١- التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية بالموصل وحلب.

تحقيق د. عبدالقادر أحمد طليمات، طبعة دار الكتب الحديثة. القاهرة ١٩٦٣.

٢- الكامل في التاريخ.

دار صادر – دار بيروت. بيروت ١٩٦٦.

إبن جبير، محمد بن أحمد بن جبير البلنسي الأندلسي (ت ٦١٤هـ/ ١٢١٧م)

٣- تذكرة بالأخبار عن إتفاقات الأسفار (رحلة إبن جبير)

نشره د. محمد مصطفى زيادة – دار الكتاب اللبناني، بيروت. دار الكتب المصري (بلا تاريخ طبع الكتاب)

إبن الجوزي، عبدالرحمن بن علي بن محمد (ت ٥٩٧هـ/ ١٢٠١م)

٤- المنتظم من تاريخ الملوك والأمم.

طبعة الدار الوطنية، بغداد ١٩٩٠.

إبن حوقل، محمد بن علي الموصلي البغدادي (ت ٣٦٧هـ/ ٩٧٧م)

٥- صورة الأرض.

منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت ١٩٧٩.

إبن خلدون، عبدالرحمن بن محمد (ت ٨٠٨هـ/ ١٤٠٥م)

٦- المقدمة.

طبعة مكتبة المدرسة ودار الكتب اللبناني للطباعة والنشر، بيروت- لبنان

١٩٧٩.

إبن خلكان، شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر الأربلي (ت ٦٨١هـ/ ١٢٨٢م)

٧- وفيات الأعيان، وأنباء أبناء الزمان.

تحقيق د. إحسان عباس، مطبعة الغريب، دار الثقافة، بيروت ١٩٦٨-١٩٧١.

الدواداري، أبوبكر بن عبدالله بن أيبك (ت بعد ٧٣٦هـ/ ١٣٣٥م)

٨- الدرة المضيّة في أخبار الدولة الفاطمية.

تحقيق د. صلاح الدين المنجد، مطبعة المعهد الألماني للآثار، القاهرة ١٩٦١.

أبو شامة، عبدالرحمن بن إسماعيل المقدسي الدمشقي (ت ٦٦٥هـ/ ١٢٦٦م)

٩- كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (النورية والصلاحية).

مطبعة وادي النيل، القاهرة ١٢٨٧-١٢٨٨هـ.

إبن شداد، بهاءالدين يوسف بن رافع الأسدي (ت ٦٣٢هـ/ ١٢٣٤م)

١٠- النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية (سيرة صلاح الدين).

تحقيق د. جمال الدين الشيال، طبعة الدار المصرية، القاهرة ١٩٦٤.

العباسي، الحسن بن عبدالله (بدأ بتأليف كتابه سنة ٧٠٨هـ/ ١٣٠٨م)

١١- آثار الأول في ترتيب الدول.

مطبعة بولاق ١٢٩٥هـ.

عمادالدين الكاتب الأصفهاني، محمد بن محمد بن حامد بن عبدالله (ت ٥٩٧هـ/ ١٢٠١م)

١٢- الفتح القسي في الفتح القدسي.

تحقيق محمد محمود صبح، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة ١٩٦٥.

نفسه، ومن تلخيص قوام الدين الفتح البنداري (ت القرن السابع هـ/ الثالث عشر م)

١٣- سنا البرق الشامي، تلخيص كتاب الأصفهاني المذكور الموسوم (البرق

الشامي).

تحقيق د. رمضان ششن، دار الكتاب الجديد، بيروت ١٩٧١.

العمري، إبن فضل الله العمري

١٤- التعريف بالمصطلح الشريف.

القاهرة ١٣١٢هـ.

إبن النظام الحسيني، محمد بن محمد بن عبدالله (ت ٧٤٣هـ/ ١٣٤١م)

١٥- العراضة في الحكاية السلجوقية.

ترجمة وتحقيق د. عبدالنعيم محمد حسنين ود. حسين أمين. مطبعة جامعة بغداد ١٩٧٩.

إبن واصل، محمد بن سالم الحموي (ت ٦٩٧هـ/ ١٢٩٧م)

١٦- مفرج الكروب في أخبار بني أيوب.

تحقيق د. جمال الدين الشيال، المطبعة الأميرية، القاهرة ١٩٥٧.

ياقوت الحموي، بن عبدالله الرومي (ت ٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م)

١٧- معجم البلدان.

دار صادر- دار بيروت، لبنان ١٩٥٥-١٩٥٧.

ثانياً: المراجع

١٨- د. أحمد عبدالعزيز: الهذبانيون في أذربيجان وأربيل والجزيرة.

رسالة ماجستير غير منشورة. كلية الآداب- جامعة صلاح الدين- أربيل ١٩٩٠.

١٩- آرنست باركر: الحروب الصليبية.

ترجمة د. الباز العريني. مطبعة لجنة البيان العربي. مكتبة النهضة المصرية القاهرة ١٩٦٠.

٢٠- د. إسماعيل شكر رسول: الإمارة الشدادية في بلاد ئاران.

دار موكرياني للطباعة والنشر- أربيل ٢٠٠١.

٢١- تيسير بن موسى: نظرة عربية على غزوات الفرنج.

الدار العربية للكتاب. طرابلس- ليبيا (د. ت)

٢٢- دلير إسماعيل فرحان: الكرد في اليمن.

رسالة ماجستير غير منشورة. كلية الآداب- جامعة صلاح الدين- أربيل ٢٠٠٢.

٢٣- ستيفن رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية.

ترجمة د. الباز العريني. طبعة دار الثقافة. بيروت ١٩٦٨.

٢٤- عبدالرقيب يوسف: الدولة الدوستكية في كردستان الوسطى.

بغداد ١٩٧٢.

٢٥- د. فاروق عمر فوزي، د. محسن محمد حسين: الوسيط في تاريخ فلسطين في العصر الإسلامي.

دار الشروق للنشر والتوزيع. عمّان- الأردن ١٩٩٩.

٢٦- د. قاسم عبدة قاسم: ماهية الحروب الصليبية.

عالم المعرفة. الكويت ١٩٩٠.

٢٧- د. محسن محمد حسين: أربيل في العهد الأتابكي.

مطبعة أسعد. بغداد ١٩٧٦.

٢٨- د. محمد صالح منصور: أثر العامل الديني في توجيه الحروب الصليبية.

منشورات جامعة قار يونس. بنغازي- ليبيا ١٩٩٦.

٢٩- د. محمد صالح داود القزاز: الحياة السياسية في العراق في العصر العباسي الأخير.

مطبعة القضاء. النجف الأشرف– العراق ١٩٧١.

٣٠– د. نەبەز مجيد أمين: المشطوب الهكاري.

رسالة ماجستير غير منشورة. جامعة صلاح الدين– أربيل ١٩٩١.

٣١– د. نظير حسان سعداوي: التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين.

مكتبة النهضة المصرية. القاهرة ١٩٥٧.

32- Crousset, R. Histoire des Croisades et du Royaume Franc du Jerusalem. Part II, Paris 1935.

لم نُشرِ في هذه القائمة الى بعض المطبوعات والبحوث.

الأستاذ الدكتور محسن محمد حسين

(السيرة العلمية)

* ولد في أربيل، وأكمل دراسته الإبتدائية والثانوية فيها عام ١٩٥٨.
* تخرّج من قسم التاريخ – كلية التربية – جامعة بغداد عام ١٩٦٢.
* خدم في التعليم الثانوي تسع سنوات ثم إلتحق بالدراسات العليا/ كلية الآداب – جامعة بغداد، فنال درجة الماجستير في العام ١٩٧٤ عن موضوع «أربيل في العهد الأتابكي».
* إلتحق بدراسة الدكتوراه عام ١٩٧٧ ونال درجتها في ١٩٨١ عن موضوع «الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين: تكوينه، تركيبه، تنظيمه، أسلحته، بحريته، معاركه» من الكلية.
* عمل في جامعة بغداد، كلية الآداب ثم التربية منذ ١٩٧٤–١٩٨٢، في قسم اللغة الكردية – وقسم التاريخ ١٩٨٢–١٩٩٤.
* إلتحق بجامعة صلاح الدين – أربيل ١٩٩٤–١٩٩٦.
* غادر للعمل في جامعة مصراته – ليبيا ١٩٩٦–٢٠٠١.
* ساهم في مؤتمرات وندوات عديدة في العراق وإقليم كردستان وفي الخارج.
* عضو لجنة التاريخ الكردي في المجمع العلمي العراقي – بغداد.
* عضو هيئة تحرير مجلة «رۆشنبيرى نوێ» الأكاديمية (١٩٨٢–١٩٩٤) في بغداد.
* ترقى الى مرتبة أستاذ – ١٩٩١.
* له تسع مؤلفات طُبعتْ في بغداد وعمان وبيروت وأربيل.
* له بحوث منشورة باللغتين الكردية والعربية في بغداد في مجلات: كلية

الآداب – المجمع العلمي العراقي (الهيئة الكردية) – رۆشنبيرى نوێ – سەنتەرى برايەتى – هەولێر – كاروان. وفي صحف عديدة، وبحوث أخرى نُشرتْ في الكويت والرياض (مجلة كلية الآداب).

* له إهتمام خاص بفلسفة التاريخ، التدوين التاريخي، منهج البحث التاريخي، الفكر السياسي، إضافة الى تخصصه في تاريخ أربيل الإسلامي وتاريخ صلاح الدين حيث ألّف عنه أكثر من ثلاث كتب.
* أشرف على رسائل ماجستير ودكتوراه عديدة.
* يعمل حالياً في جامعة صلاح الدين – أربيل.

الفهرست

تمهيد 5
قصتي مع صلاح الدين 13
الحروب الصليبية 19
موطن آباء صلاح الدين 21
سبب نزوحهم عن كردستان 23
ولادة صلاح الدين ونشأته 25
الكرد في جيشه وحكومته 26
موقفه من القومية الكردية 37
لماذا لم يجعل عاصمة دولته في كردستان 40
صلاته بالزعماء الكرد 52
موقف الخلافة العباسية من منجزاته 54
سبب إبتعاده عن المسار القومي 71
أوضاع كردستان في عهده 78
سبب هجرة العلماء والنخبة الكردية من كردستان في تلك الأيام 81
عزوفه عن لمّ شمل النخبة الكردية حوله 84
هل يحق لنا أن نفاخر بصلاح الدين؟ 87
محاولات القوميين العرب تعريبه 89
كيف سيبرر صلاح الدين ما فعل؟ 98
سرّ عدم قيام دولة كردية إسلامية 99
شعراء عرب يستهينون بصلاح الدين لكونه كردياً 101
صلاح الدين وبناء القلاع خارج كردستان 106
إمتناع صلاح الدين عن زيارة كردستان 107
المصادر والمراجع 111
السيرة العلمية للدكتور محسن محمد حسين 117